لماذا يتعاطف الناس مع الجاني ؟!

Telegram:@mbooks90

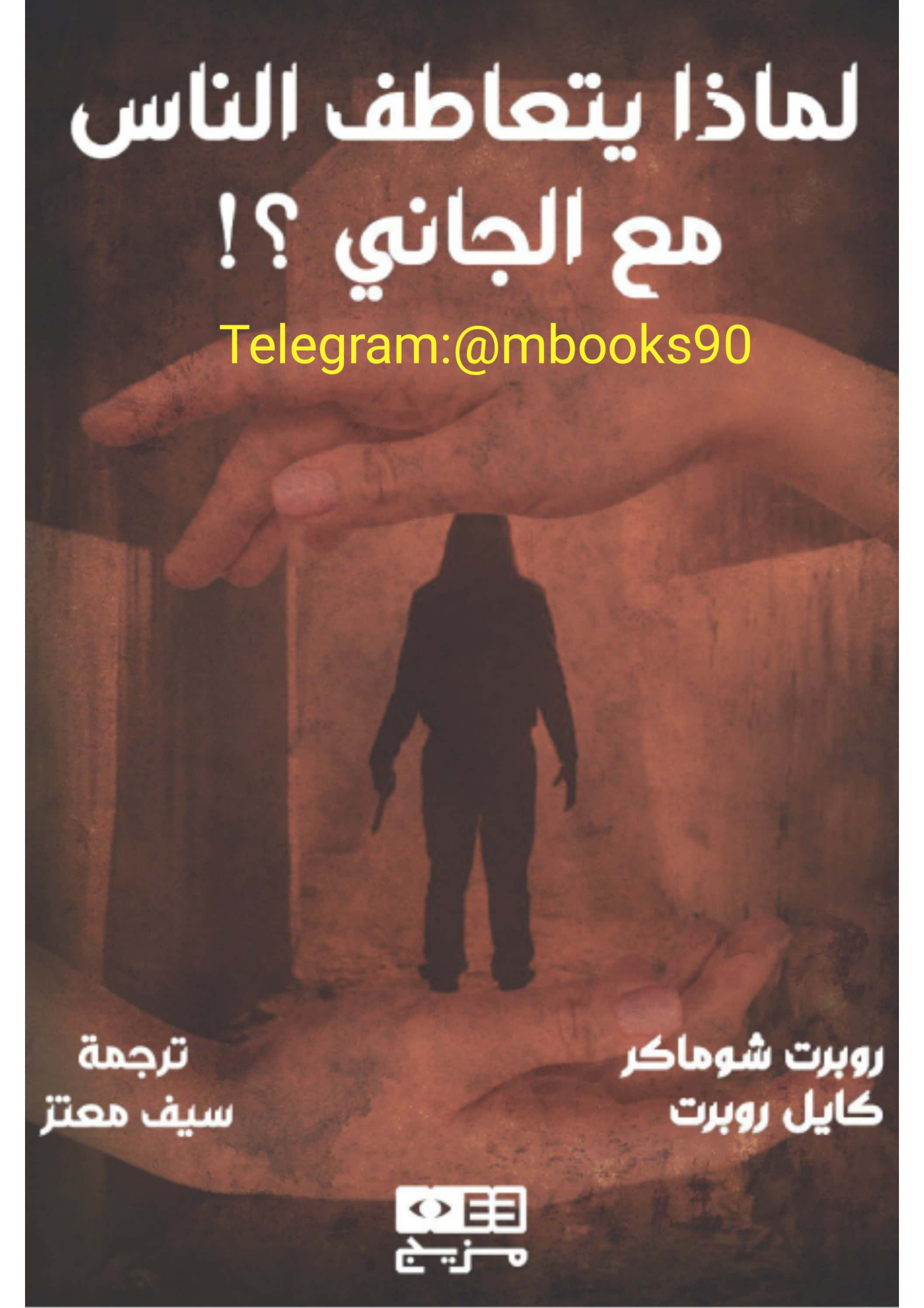

روبرت شوماكر
كايل روبرت

ترجمة
سيف معتز

الفصل الأول : لماذا نتعاطف مع المجرمين؟

سر العاطفة تجاه المجرمين

عبــر سرد مشاهير المجرمين

في لندنِ بالقرن الثامن عشر

تـوطئـة :

في الثالث عشر من سبتمبر للعام ١٧٥٠، وفي معترك موجة الجريمة التي اجتاحت لندن في أعقاب الحرب النمساوية الموافقة لعام ١٧٤٨، كان جيمس ماكلاين James Maclaine معروضًا على القضاء بمحكمة Old Baily (المحكمة الجنائية المركزية بلندن)، وذلك بتهمة الضلوع في ارتكاب سرقة على الطريق السريع. وجيمس ذاك هو نجل الوزير المشيخي الأيرلندي «رجل الطريق السريع النبيل/المحترم». إذ كان ماكلاين متهمًا بالسرقة تحت تهديد السلاح لجنيهين (جنيهان و١٢ شلن للتحديد)، وبعض الملابس، من بينها معطف، وزوج من الجوارب الحريرية، وزوج آخر من أربطة الأحذية الفضية، وذلك من الضحية إسحاق هيجدين Isaac Higden، أحد الركاب على متن باصات «ساليزبوري فلاينج كوتش the Salisbury Flying Coach»، وانتهى الأمر بماكلاين أن قدم شهادة ضعيفة بالنهاية، ومن ثم أُدين وحُكم عليه بالإعدام. خلال عملية السطو تلك، والتي حدثت بين الساعة الواحدة والثانية صباحًا، أمر ماكلاين وشريكه جيمس بلونكيت James Plunket، اللذان كانا «مسلحين وملثمين»، الركابَ بالخروج من الحافلة، مهددين بتفجير دماغ هيجدين، لمحاولته إخفاء بعض الأشياء الثمينة الخاصة به. كل هذا كان في وقت يتزايد فيه القلق العام بشأن علوّ وتيرة وجرأة عمليات السطو على الطرق السريعة، مما أدى إلى عرض مكافأة قدرها ١٠٠ جنيه إسترليني لإدانة اللصوص، وإقرار تشريعات جنائية جديدة، بالإضافة إلى نشر حوار هنري فيلدنج Henry Fielding الناري، والذي كان عبارة عن تحقيق في أسباب الزيادة مؤخرًا في أعداد اللصوص أو القائمين بأعمال السرقة (١٧٥١)، وذلك لأن هذه كانت واحدة من بين ١٢٨ عملية سطو تمت محاكمتها في أولد بيلي Old Baily بين عامي ١٧٤٩ و١٧٥٣. ومع كل ذلك، كان

Telegram:@mbooks90

ماكلاين مرمىً لتعاطف جم، وأصبح بالوجه الإيجابي للمصطلح: أحد مشاهير الإجراميين: فقد اشترى الجمهور العديد من الكتب والصور التي تصور حياته وجرائمه، وبكت السيدات أثناء محاكمته، كما «أثنى عليه تسعة من السادة النبلاء [وبعض السيدات] بصفات حميدة للغاية»، وزارهُ الآلاف في السجن، حاملين إليه الهدايا (Hitchcock, Shoemaker، 2006، 170-180). والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن العديد من ضحاياه رفضوا أن تتم محاكمته، وحاول آخرون الوصول بالأمر إلى العفو عنه. وفي حين لم يكن الجميع مقتنعين بادعاءاته حيال مكانة خاصة/وسم خاص كـ «قاطع الطرق السريعة» المعتاد آنذاك، إلا أن ذلك التعاطف العام والكبير في الحجم الذي تلقاه ماكلاين هدد بتقويض الجهود الرسمية القائمة بتشجيع محاكمة عملية السرقة.

يكشف ذلك الفصل كيف أنه أضحى بالإمكان لعدد قليل من المجرمين أمثال ماكلاين Maclaine أن يصيروا مشاهير في لندن، وذلك في القرن الثامن عشر (الطويل) أو الذي عُرف بطوله (The Long 18th Centiry). وبتلك الطريقة، سنجدنا نسلط الضوء على تاريخ تفاعل الناس مع كل من الجريمة والشخصيات الشهيرة بذاتها. فمنذ التسعينيات صارت الشخصيات الشهيرة موضع اهتمام بحثي جليل وعظيم، ولكن معظم الاهتمام لا يزال منصبًا على الحياة المعاصرة، عاكسًا بذلك أهمية وسائل الإعلام في توليد الدعاية المتطلّبة. ومع ذلك، ففي الآونة الأخيرة، أشار المؤرخون لأن المشاهير لديهم تاريخ طويل وهام. ففي كتابه الأخير المهم، يأخذ أنطوان ليلتي القصة إلى الوراء قليلًا عند منتصف القرن الثامن عشر بالتحديد، قائلًا بأن تاريخ المشاهير يعود إلى ظهور جان جاك روسو، كأحد المشاهير مع نشر كتابه Discours sur les Sciences et les Arts عام ١٧٥٠ وموقفه المتناقض إزاء تلك المكانة. وبرغم ذلك فإن ليلتي Lilti

يرى بأن ثقافة المشاهير المكتملة الجوانب لم تظهر (بوضوح) حتى بدايات رومانتيكية القرن التاسع عشر (ليلتي، ٢٠١٧). وهناك آخرون من الباحثين، نلحظ منهم بريان كووان Brian Cowan، ممن جادلوا بقوة أن مصطلح «المشاهير Celebrity» كان أيضًا ظاهرةً ضمن أوائل العصر الحديث أو العصور الوسطى حتى، ولكن الأبحاث حول المشاهير فيما قبل الحداثة لا زالت في مرحلةٍ نقول باكرة! وفي كل الأحوال، فطالما أن الدراسات تستخدم تعريفات متباينة للمصطلح، فإنه من الصعب الإمساك بتأريخ متماسك له ولأصله.

إن مصطلح(Celebrity) «المشهور» فضفاضٌ بحق، ولذا فمن المفيد تضييق نطاق التركيز عما هو عليه الحال في نظرتنا الحديثة، والتي تعني بالمشهور شخصًا «معروفًا/موسومًا بشهرته جيدًا» (Boorstin, 1973, 57). فباستخدام التعريف المعاصر للقرن الثامن عشر للشهرة على أنها نتيجة «للاحتفاء»، تركز على نوع إيجابي من الشهرة يحققه الأفراد الذين تعاطف معهم الجمهور، وشعروا أن بإمكانهم التعامل معهم، وذلك على المستوى الافتراضي، إن لم يكن الشخصي. كما سنشرح كيف تمكن المشاهير أنفسهم من السعي للحصول على هذه المكانة لمصلحتهم الخاصة، ونكتشف أن هذه الفرصة كانت متاحة لبعض المجرمين، الذين نجحوا في القرن الثامن عشر في الحصول على مكانة المشاهير وحصلوا عليها، ولكن بالنسبة لهم كانت هناك درجة ملحوظة من التشاركية المتبادلة بين الجمهور والمجرم. في حين أن المجرمين، مثلهم مثل جموع المشاهير، لم يتمكنوا من الحفاظ على سيطرتهم الكاملة على صورتهم، فإن قدرتهم على تحقيق الاعتراف الذي حققوه يوفر أدلة جديدة قيمة/ذات قيمة على قيام المتهمين بالإقدام على الجريمة أو ارتكابها.

في حين أن المجرمين المشهورين فرادى قد حظوا ببعض الاهتمام البحثي، إلا أن تاريخ مشاهير المجرمين كظاهرة جماعية لمْ يُكتب بعد. وللقيام بذلك فمن الضروري تحديد الأنماط الشائعة في قصص ذاك العدد القليل من المجرمين ممن وصلوا إلى مكانة المشاهير، وتحديد الظروف الاجتماعية والثقافية، ولا سيما تنامي ثقافة الطباعة، وكذلك الأهميةِ المتزايدة للتواصل الاجتماعي العام، كل هذا مع ظهور المدرسة الشاعرية الأدبية (Sensibility Movement)التي سهلت ظهور المشاهير المجرمين في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر. ومما دخل في دائرة الجدل قولهم أن «من المتعارف عليه أن المشاهير وثيقو الصلة بخرق القانون». فظاهرة الشخصية الإجرامية تتيح لنا أن نرى كيف أن الشهرة قد تتيح للمجرم أن يحظى بتعاطف الناس ودعمهم من مختلف أطياف المجتمع. (Rojek, 2011, 177) لكن هذا النوع الخاص من المشاهير لم يدم طويلاً إلى حد ما، وتفسير سبب اختفاء المجرمين من المشاهير في أوائل القرن التاسع عشر يسلط الضوء على المواقف المتغيرة تجاه الجريمة بالإضافة إلى الطبيعة الغير-خطية لتاريخ (المشهور) أو (المشاهير).

نحو تأريخٍ لمشاهير المجرمين:

يرجع تأصيل تاريخ المجرمين إلى منتصف القرن السابع عشر في إنجلترا، ومركزه تحديدًا في لندن، حيث الثقافة الخاصة بالطباعة. وعددٌ محدود جدا من المجرمين حينها مَن كانوا قادرين على القراءة والكتابة، والدخول في عالمهم الخاص من الأساطير. وكما يلحظ باول جريفيثس Paul Griffiths « قبل عام ١٦٦٠... لم تكن هنالك قصص مباشرة عن حيوات المجرمين، مع اهتمام بشعور بطل الرواية أو محرك الأحداث. لا لصٌ من الطبقة الدنيا أو متشردًا سبق له

ووضع تفاصيل حياتها على الورق المنشور...» (2008, 137) . وفي المقابل، كانت السنوات الـ ١٣٠ اللاحقة وقتًا مواتيًا لنشوء وظهور مشاهير المجرمين في لندن. إذ تضمنت الحياة الثقافية النابضة بالحياة لاستعادة لندن توسيعَ أماكن التواصل الاجتماعي، بما في ذلك المقاهي والمسارح التي أعيد فتحها. كما توسعت ثقافة الطباعة الحيوية مع انتهاء عملية ترخيص الصحافة عام ١٦٩٥، مما سهّل حصول زيادة كبيرة في المنشورات المطبوعة، مصحوبة بنمو موازٍ في معدلات المعرفة بالقراءة والكتابة (لاسيما القراءة). وقد كانت الجريمة فصيلًا رئيسيًا بالنسبة للعديد من أنواع المطبوعات المتوسعة، بما في ذلك الصحف والسير الذاتية وتقارير المحاكمات والصور المطبوعة، والتي تم تشجيع شرائها من خلال تنامي النزعة الاستهلاكية (شوميكر، ٢٠٠٩). علاوة على ذلك، فإن تطور ثقافة الوعي/الإدراك في النصف الأخير من القرن الثامن عشر شجع الارتباط العاطفي بين الجمهور والمجرمين؛ وكما يتناول الأمر توماس ديكسونThomas Dixon قائلًا: «لقد تطور لدينا عالمٌ من النحيب والشجب الأخلاقي، الذي امتد من المجرمين المدانين إلى قضاتهم وقساوستهم وجلاديهم، وحتى من الفلاسفة والوعاظ وفاعلي الخير إلى البغايا والمزورين وقطاع الطرق واللصوص" (٢٠١٥، ٩٦).

تم تحليل هذه الأدبيات المطبوعة، وتحديدًا السير الذاتية الإجرامية، بحساسية شديدة من لدن عدد من العلماء، بما في ذلك Lincoln Faller, Hal Gladfelder, Andrea McKenzie, and Gillian Spraggs. لينكولن فالر، وهال جلادفيلدر، وأندريا ماكنزي، وجيليان سبراجس. ولكن في حين أن أعمالهم تحدد بشكل فعال مجموعة واسعة من المعاني الاجتماعية والثقافية المنقولة في هذه النصوص، بما في ذلك الآثار التخريبية في كثير من الأحيان لتصوير

المجرمين كأبطال أو «نقاد اجتماعيين»، فإن تحليلهم نادرا ما يمتد إلى ما هو أبعد من النصوص، للنظر في السياق الأوسع. حول إنشائها وتأثيرها (Faller, 1987; Gladfelder, 2001; McKenzie, 2006, 2007, 2012; Spraggs, 2001). وهنا نتخذ نهجًا مختلفًا. إذ تتناول، أولاً/مبدئيا، كيف سعى المجرمون الأفراد إلى الترويج لقصصهم على نطاق واسع من الأنشطة، سواء من خلال التعاون مع المؤلفين والناشرين والفنانين أو من خلال سلوكهم في محاكم لندن وسجونها، وأي مكان للتواصل الاجتماعي. ومن ثم تنتقل إلى النظر في كيفية استجابة الجمهور لهذه النصوص والأنشطة، والتعاطي فعليًا مع هؤلاء المجرمين، بل وتصنيف بعضهم كمشاهير.

ومن هنا سينصب تركيز المقال بالكلية على عدد قليل جدًا من المجرمين الذين حصلوا على الاهتمام الجماهيري، وربما سعوا إليه، بالإضافة إلى التفاعل الإيجابي مع قصص حيواتهم التي عاشوها. ومن هنا، لم يحتفِ الجماهير بأولئك الذين فشلوا في جذب انتباههم أو لم يعاملوه بذات القدر من الاهتمام، ولا أولئك الذين كانت أفعالهم محلّ استهجان أو استنكار. مثل أولئك الذين كانوا على رادار الرأي العام، ولكن على سبيل الإدانة لا الإشادة، ونضرب مثالًا دقيقًا بـجوناثان وايلد Jonathan Wild، خاطف اللصوص الذي تم إعدامه عام ١٧٢٥، فهو ممن لا ينطبق عليهم التمثيل أو التشخيص السابق. وكان وايلد Wild مُدانًا على نطاق الرأي العام، بسبب سلوكياته، كمُخبر، وخاطف للصوص (وهو ما أدى إلى شنق/الإجهز على أناس أبرياء)، بالإضافة إلى ضلوعه في اعتقال الشهير Jack Sheppard (كما سنناقشه في الأسفل)، فبينما كان الأخير في طريقه إلى حبل المشنقة في Tybrun Wild، تعرض فجأةً للاغتيال من قبل حشد ضخم(McKenzie, 2004) . ولدينا آخرٌ اهتم الجمهور بقضيته عقب اعتقاله،

وهو القاتل والسارق ديك توربين Dick Turpin الذي لم يُحتفَ به وبمغامراته إلا بعد موته بقرنٍ من الزمان.(Sharpe, 2004, 137-138). وبالمثل، فقتلةٌ مثل ثيودور جارديل، وقاتلاتٌ أمثال ماري هوبري، سارا مالكولم، ماري بلاندي، وكذلك إليزابيث جيفريس، ممن كانوا مواضيع اهتمامٍ للرأي العام، وجاذبين لبعض التعاطف بدورهم، لم يكونوا من المشاهير. والبعض، مثل مالكولم، سعوا إلى الجماهيرية من أجل الاعتراض على تبرئتهم (إذ جلست لالتقاط صورة بورتريه بواسطة ويليام هوجارث)، ولكن لم يوجد دليل حي على أنها حظيت بإعجاب الجمهور. أما القاتل جايمس هاكمان، فقد نجح في الحصول على المزيد من التعاطف الجماهيري، ولكنه لم يسع إلى تحقيق اهتمامٍ كهذا، وبكل الأحوال، فلم تواته الفرصة في التعاطي مع الجمهور، إذ تم تنفيذ حكم الإعدام عليه بعد ارتكاب جريمته باثني عشر يومًا (Brewer, 2004, ch.1-2). أما فورجرز، مثله مثل كارولين رودد، ووليام دودد، أيضًا قد تلقوا بعض التعاطف الجماهيري، ولكن الصورة العامة كانت دفاعية، ومنكرةً نوعًا ما، ومقلّلةً من شأن الجرائم التي ارتكبوها.

كان يلزم المجرمين ليُحتفى بهم (ليس فقط أن يُرَوا شائنين سيئي السمعة)، أن يسعوا إلى الجماهيرية، لا بغرضٍ بسيط كالدفاع عن أنفسهم، ولكن ليقدموا صورة إيجابية، ووجد الجمهور نفسه محتاجًا أن يتعامل مع تلك العروض والميول بدورهم مع المجرم. وفيما قبل عام ١٦٦٠ لا يوجد لدينا دليل ملموش لمجرمٍ ساهم بشكل كبير في تقديم نفسه للعامة. كان قاطع الطريق الملكي James Hind (توفي عام ١٦٥٢) موضوعًا للعديد من المنشورات (والتي كان معظمها بوحيٍ من الخيال) واكتسب سمعة السارق المهذب، وبالرغم من وجود بعض المؤشرات لسعيه نحو اكتساب مكانة مشهورة، وهو ما حصل بالفعل، إلا

أن تلك الأدلة تظل محدودة للغاية. هناك أيضًا بعض الشك حيال قضية ماري فريث Mary Frith (المعروفة أيضًا باسم Moll (or Mal) Cutpurse)، وهي متخنثة (بمعنى Cross-dresser والتي تشير إلى أن يلبس الشخص ملابس الجنس الآخر ويتصرف مثله) وممثلة، وسارقة، ومستقبلة للبضائع المسروقة في أوائل القرن السابع عشر. لم تكن فريث Frith قادرة على الكتابة، لكنها ربما ساهمت في كتابة سيرتها الذاتية المنشورة بعد وفاتها، عام ١٦٦٢، أي بعد ثلاث سنوات من مصرعها. وعلى غرار هيند Hind، يبدو أن حياة فريث Frith كانت وعاءً مناسبًا لصب قصص البيكاريسك Picaresque التقليدية، ومن الجدير بالذكر معرفة أن دورها في تشكيل سيرتها الذاتية وتمثيلاتها التصويرية كان ضئيلًا/صغيرًا للغاية. وعلاوة على ذلك، فإن هنالك القليل من الأدلة ترشدنا إلى أن الجمهور قد سعى للتقرب منها على محملٍ شخصي.

مذ كان الأمر أن القرن الثامن عشر «الطويل» قد حفل بالعديد من المجرمين ممن اكتسبوا عناصر/مكونات الشهرة المحتملة، فإن هذا المقال سيكون بمثابة تفحص لقصص سبعة من المجرمين، ممن سعوا إلى تلك المكانة، وضمنوها بعد ذلك بفعل الجمهور:

* ماري كارلتون «الأميرة الألمانية». ابنةٌ لعازف جوقة(منشد) أو عازف كمان. وقد تظاهرت كارلتون بأنها سيدة ألمانية ثرية أتت إلى لندن، وهناك حيث تزوجت من جون كارلتون، رغم كونها متزوجةً في ذلك الوقت بالفعل Twice Married. وعندما اكتشف خداعها، حاكمها زوجها بتهمة تعدد الأزواج في أولد بيلي عام ١٦٦٣، ولكن تمت تبرئتها. ثم أدينت فيما بعد بالسرقة مرتين وتم إعدامها عام ١٦٧٣.

* جيمس ويتني (أعدم عام ١٦٩٣)، وهو صبي جزار، وقاطع طريق، كما كان يعقوبي المذهب (أي من أتباع الملك المعزول جيمس الثاني وأبنائه)، وادعى بعد ذلك أنه متورط في مؤامرة لاغتيال ويليام الثالث، ليصير موضوعًا للعديد من القصائد الشعبية والنشرات المطوية.

* جاك شيبارد (أعدم عام ١٧٢٤)، ابنٌ لنجار، ولصٌ شاب، اشتهر بهروبه من السجن أربع مرات.

* جيمس ماكلاين (أو ماكلين، أعدم عام ١٧٥٠)، «قاطع الطريق» أو (The gentleman highwayman) الذي بدأت به هذه المقالة.

* ويليام كوكس (أعدم عام ١٧٧٣)، ابنٌ لحائك أنسجة (نساج)، والذي نصّب نفسه أيضًا على أنه قاطع طريق نبيل، ولكنه وجد قبولًا مختلطًا من الجمهور.

* جاك ران (أعدم عام ١٧٧٤)، «جاك ذو الستة عشر سلسلة»، من قطاع الطرق الشباب، وكان يسعى للحصول على الاهتمام، صحيح أنه ذو أصول غامضة، ولكنها مصحوبة بادعاءات أرستقراطية/نبيلة.

* جورج بارينجتون، ابنٌ لأحد الحرفيين، والذي امتهن النشل بالرغم من كونه نبيلًا. يعد بارينجتون مثالًا غير عادي للمجرم الذي تمكن من الحفاظ على مكانته المشهورة لفترة طويلة (١٧٧٥-١٧٩٠). إذ حقق بارينجتون مسيرة مهنية ناجحة كمسؤول قضائي، بعد انتقاله إلى أستراليا، لكن هذه المقالة ستركز فقط على الفترة التي قضاها في إنجلترا.

* بالرغم من أصولهم المتواضعة بشكل عام، فإن قطاع الطرق ذوي التطلعات

إلى النبل والأخلاق يهيمنون على هذه القائمة، حيث سعوا إلى تمييز أنفسهم عن «لصوص الشوارع» المتواضعين والأكثر تهديدًا(شوميكر، ٢٠٠٦). ولكن القائمة شملت أيضًا، إحدى المعددات في الأزواج مع كونها سارقة، ولصًا، وفنانًا في الهروب، ونشالًا.

السعي وراء الشهرة:

كيف يا ترى نجح أولئك المجرمون في كسب تلك الهالةِ من الشهرة؟ فمع صرف النظر تعدد أزواج كارلتون، وهروب شيبارد، إلا أننا سنجد الانتباه لا يزال مصروفًا إليهم، ليس فقط بالقصص حيال جرائمهم، والتي كانت في الغالب الأعم سرقاتٍ معتادة أو بسيطة، ولكن من خلال المجاهرة أو المفاخرة بحالهم، والتي سعوا إليها، وفي نفس الوقت مُنحت لهم، عن طريق الصحف، وأيضًا ظهورِهم أمام الجمهور. ولإيضاح جزء من التفشي الضخم لطباعة أدبيات الجرائم في تلك الحقبة، يمكننا أن نقول أن نشاطات المجرمين حظيت بالانتشار كما لم يحدث من قبل؛ فحتى قبل انتهاء مدة تصريح الطباعة عام ١٦٩٥، كانت كارلتون موضوعًا لستة وعشرين مادةً منشورة فيما بين ١٦٦٣ و ١٦٧٣، بينما شهد العقد الأخير من نفس القرن - أي تسعينيات القرن السابع عشر - تسعة منشورات وقصائد شعبية، بالإضافة إلى سيرة ذاتية، كلّها عن وايتني. تم تصوير/وصف المجرمين في عدة أنواع مختلفة من المطبوعات: فبالإضافة إلى المنشورات ذات الوجه الواحد التي كُتب عليها بعض الأناشيد أو الأقاصيص الشعرية، ظهرت أشكال جديدة من النشر في تلك الفترة، ولا سيما السير الذاتية، وتقارير المحاكمات والصحف. يرجع تاريخ كل من «السجل العادي لسجن نيوجيت» (السير الذاتية للمتهمين الذين سيتم إعدامهم قريبًا، والتي قام

بتجميعها قسيس سجن نيوجيت)، وكذلك سجل إجراءات(قيد تقارير) أولد بيلي Old Bailey (الذي تضمن تقارير عن كل محاكمة جرت في تلك المحكمة) كلاهما إلى عام ١٦٧٤. ولم تكن هذه المنشورات قد قدمت فقط بضع روايات شاملة عن الجرائم والحياة الإجرامية، ولكنها أوغلت من خلال شهادات المدعى عليهم والمقابلات مع المدانين، لتسمح أيضًا للمجرمين بشكل ما أن يرووا قصصهم بأسلوبهم الخاص.

في الفترة التي أعقبت عام ١٦٩٥، أدى انتشار الصحف إلى نشر تقارير الجرائم على نطاق أوسع. وكان هروب شيبارد عام ١٧٢٤ موضوعًا لتقارير مكثفة؛ فوفقًا لفيليب رولينجز Philip Rawlings ، «اعتمدت شهرة شيبارد إلى حد كبير على التقارير الصحفية التي أثيرت حوله - بل لربما كانت تلك هي الحالة الأولى التي تتبنى فيها الصحف فردًا وترسم له صورة جماهيرية» (١٩٩٢، ٤٠). وفي وقت لاحق من نفس القرن، تم نشر مآثر بارينجتون ومغامراته الإجرامية على نطاق واسع في صحف لندن فيما بين عامي ١٧٧٥ و١٧٩٠، وبلغ الأمر إلى أن وصفته بأنه بارينجتون «المشهور» في وقت مبكر من عام ١٧٧٧. ويبدو أن بارينجتون ذاك كان على علم بأن مرات ظهوره في قاعة المحكمة (كما سنوضح أدناه) ستنشر في الصحف، كما منحت الصحافة لقرائها المتعة بذكر تفاصيل تنكره وأماكن وجوده المحتملة. وقد ساهم بارينجتون فيما بعد في تلك الجماهيرية؛ وذلك عن طريق إرسال جوابات عدة إلى الصحف يدافع فيها عن سمعته، وفي عام ١٧٧٧ قامت صحيفة ذا جينيرال إيفينينج The General Evening بالادعاء أنه قام بـ(بث) شرفه ونزاهته في العديد من الصحف». (14 January 1777).

لقد كان بارينجتون واحدًا من المجرمين القلائل الذين كتبوا للصحف، ففي

الغالب الأعم لا يكون المجرمون قادرين على التحكم في لقاءاتهم مع تلك الوسائل الإعلامية، سيما أن التغطية كثيرًا ما تكون سلبيةً (حيالهم). ولكن المؤكد أنهم استطاعوا بالفعل المشاركة في تشكيل صورتهم بأذهان الجمهور عن طريق أنواع أخرى من المقروءات المطبوعة، لاسيما الأصناف المتزايدة من السير الذاتية وكذلك السير الغيرية. مع عدم إغفال دور التأثير الدراماتيكي في توصيف المجرمين، مثل (Moll Flanders، 1722) وكذلك المسرحيات مثل: The Beggar's Opera أو عرض أوبرا المتسول - الشحاذ (١٧٢٨، والتي أقتبست أجزاء منها من حياة شيبارد)، فمنحتهم هذه السرديات الفرصة لتصوير أنفسهم بشكل يستجلب العطف كأفراد، ويكشف دوافعهم، كما ويساعد في خلق وهمٍ من الحميمية بينهم وبين الجمهور القارئ. إنه مما لا يمكن إنكاره، أن معظم تلك النصوص كانت منشورة بشكل مجهول (غير معلوم المصدر)، وعلى الأغلب أنها إنما نُشرت بواسطة كتبة مأجورين، ومن ثم لا يمكننا أن نبصُر إلى أي مدى عكست تلك الكتابات فعلا وجهة النظر عن المجرمين. كان على الكتَبة أن يرضوا قرّاءهم، ولذا اعترفوا بالخطيئة التامة لما ارتكبه المجرمون من أفعال، وفي نفس الوقت إضفاء بعض الألقاب الحسَنة لتلك الخطايا، ككونها (مغامرات)، أو (مشاريع)، أو (سرقاتٍ فنية). وكما يلحظ فري إنجلز Fred Inglis في دراسته عن الرسام جوشوا رينولدز Joshua Reynolds ، فإن التفاعلات مع المشاهير هي في الغالب متأرجحة ومتباينة، مربوطًا بكلمات مثل (حقد، إعجاب، إشادة سخية، وتشويه خبيث، وانتباه شهواني، واستهانةٌ هزيلة).(2010, 57) ومن ثم، كان المجرم - وفقًا لجون ريتشيتي: (بطلًا و شريرًا في آن واحد، لجمهور القرن الثامن عشر). أعلن تقرير لجون ران أن «تتبع التغييرات والتقلبات المختلفة في حياة كحياة السيد ران، ليس بالمقبول بتاتًا، ومع ذلك يجب ألا نتجاهل ما يحدث

هاهنا، خاصة أنه قد يكون مسليًا ونافعًا في نفس الوقت" (Anon., 1774b, 6).

في حين أن الشخصيات الشهيرة المشار إليها لم تستطع التحكم بتلك السرديات، فسنجدها انسجمت مع محتواهم تمامًا، إذ كان النُّشرة للصحف يشددون التأكيد على أن معلوماتهم صدرت فرادةً من أفواه الفاعلين أنفسهم! (وفي هذا الصدد) سنجد أيضًا أن ماري كارلتون نفسَها مصنفةً كمؤلفة لـ(The Case of Madam Mary Carleton (1663، والذي تدافع فيه عن براءتها مما نُسب لها، وهو جزء من سيرة الذاتية «الماتعة»!! وبرغم أن النص مكتوبٌ على شرف الشخص الأول، إلا أن التحليلية الحديثة لحيثيات النص ترى أنها الوحيدة من بين عدة مؤلفين آخرين(Todd, Spearing, 1994, xlviii). إن مهارات شيبارد في الكتابة بالنسبة لصبي نجارٍ أمرٌ يدعو للشك حقًا! ولكن يبدو أنه كان على علم، عندما أجريت مقابلة معه في السجن من قبل المصلح الديني بسجن نيوجيت Newgate ودانيال ديفو Daniel Defoe، أن التعليقات الفاحشة والاستفزازية التي كان معروفًا بها سيتم إعادة صياغتها عند النشر في الصحف. فعندما وجه له ذاك المصلح سؤالًا: «كيف يمكنه استغلال الفقراء بهذه الطريقة عن طريق السرقة منهم؟ «أجابه: » كم كنت أتمنى أن يكون كلانا غنيًا؛ وهكذا؛ لا جُرم في أن نسرق ممن هم أفضل منا حالًا». يتضمن كتاب ديفو (History of the Remarkable Life of John Sheppard) العديد من نكات شيبارد وعباراته الهدّامة، مثل تعليقه عندما سُئل عمن قدم له الأدوات اللازمة لهروبه: «لا تسألني مثل هذه الأسئلة، فملفٌ واحد (عندي) يساوي جميع الكتب المقدسة في العالم». لقد حظيت تلك الكتيبات بشهرةٍ طبّقت الآفاق؛ بفعل أصالتها المزعومة دون شك! حيث بيعت منها آلاف النسخ؛ إذ نفدت رواية/قصة جرائم شيبارد المجهولة، وأُعيد نشرها ثماني مرات في غضون شهرين.

وصلت شعبية تلك السير الذاتية ذروتها في منتصف القرن. ففيما بين ١٧٤٧ و ١٧٥٤ نُشرت قصص حول حياة آخر عشر رجال من قطاع الطرق (معظمهم في لندن) في كتيبات عديدة، وصدر للعديد منهم أكثر من طبعة واحدة. ويُزعم أن ستةً منها قد كُتبت بأيدي اللصوص أنفسهم، أو على الأقل تم تجميعها اعتمادًا على المعلومات المأخوذة منهم أنفسِهم. (Hitchcock, Shoemaker, 2015, 200). تتناول إحدى تلك القصص حياة ماكلاين Maclaine كتبها الكاهن ريتشارد آلين Richard Allen،

والذي انتقاه ماكلاين ليكون مستشاره الوجداني بدلًا من الأب المخول بتلك الأمور في سجن نيوجيت The Ordinary. وكان هذا الوصف «مرسومًا ومنشورًا بناءً على الرغبة الخاصة بالسيد ماكلاين نفسه». وهي بذلك تصور ماكلاين كمجرد سارقٍ فقير، ولكنه ذو مؤهل تعليمي، عالمٌ بالكتاب المقدس، كما أنه ذو ضمير.(Allen, 1750, 5, 7). وبالنسبة إلى جانب ماكلاين من القصة، فقد كان أيضًا مسجلًا من خلال نشر نصوص كاملة لإدلائه بشهادة الدفاع عن نفسه في أولد بيلي، وكذلك الخطاب الذي كان قد أعده بُعيد النطق بالحكم؛ وبالكاد استطاع أن يدلي بالأخير للجمهور(للصحافة). وبرغم أنه لم يكن قادرًا على إلقاء الخطاب لانهمار الدموع من عينيه، إلا أنه أعيدت صياغة ما قال «في جميع الصحف المشهورة». أما بالنسبة لويليام كوكس William Cox، فاثنتان من أربعة من سيره الذاتية التي نشرت بين ١٧٧٣-١٧٧٤ قد زعمتا انخراطه فيهما أو أنه كان على الأقل ذا «علم عيمق» بهما. كانت فقط حياة ويليام كوكس التي عاشها ومحاكمته تقدمةً لـ «سرد العديد من عمليات السطو سيئة السمعة، والموسومة بالدهاء والخطر، والتي ارتكبها هذا *البطل* من نذالة على مدار

تسع سنوات ... قد تم تجميعها بعناية من تصريحات الجاني ورفاقه».(Anon., 1773c, title page) وبالمثل، فإن السير الذاتية للنشال جورج بارينجتون المنشورة عام ١٧٩٠ قد تشكلت أيضًا من خلال التفاصيل التي قدمها هو أو شركاؤه، إضافة إلى الخطب التي ألقاها في قاعة المحكمة. كان للمشاهير قدرٌ أكبر من السيطرة على ظهورهم أمام العامة، مما أدى بدوره إلى تشكيل نوعٍ من أنواع التفاعل الخيالي للقراء مع هذه النصوص. وعادةً ما كانت فرصتهم الأولى لجذب الانتباه تأتي في قاعة المحكمة. فشهرة ماري كارلتون على سبيل المثال بدأت مع ظهورها في أول محاكمة لها في أولد بيلي Old Bailey، وعندها قامت بدور الضحية بكل جرأة وإقناع، ونجحت في تقويض قضية الادعاء (Anon., 1663). وكما يلحظ أحد المعاصرين، توماس روج: «في وقت جلسات محاكمتها، لم تكن بحاجة إلى الكثير من المستشارين، إذ كانت قد أعلنت قضيتها بإيجاز وتمام، كما يمكن لأي شخص في مثل موقفها أن يفعل».

أعقب ظهورَ تقارير المحاكمة في سجل إجراءات أولد بيلي Old Bailey والصحف، شعور المجرمين أن سلوكهم في قاعة المحكمة سيكون محل اطلاع وبحث. وهنا، أخذ ماكلاين في التمثيل ببراعة، وهو واقف في قفص الاتهام، حيث ألقى خطابًا طويلًا حاجج فيه ببراءته، ما استفز الدموع بين الحضور من السيدات. وخلافًا لما كان عليه ماكلاين من تمسك بخلفيته النبيلة أو المحترمة، فقد سعى ران Rann إلى جذب الانتباه من خلال التصرف بجرأة. مثلاً عندما مثُل في قاعة المحاكمة قِبَل القاضي جون فيلدينج John Fielding في جلسة استماع أولية في Bow Street بتاريخ يونيو ١٧٧٤، ووفقًا لما ذكرته Public Advertiser: «جاء إلى المكتب مع باقة ورد كبيرة الحجم، وملابسه المهندمة مزينةً بشرائط زرقاء. لقد كان سلوكه جريئًا إلى درجة غير عادية...» (٢ يونيو

١٧٧٤). أما سلوك بارينجتون الذي يسعى لجذب الانتباه أكثر تهذيبًا: فقد أثارت «خطبه الطويلة والمنمقة» في أولد بيلي دعم كل من الجمهور والمحكمة (Palk، 2012). وكما ذكرت The Gazeteer وNew Daily Advertiser في فبراير ١٧٧٧، فقد ألقى جورج بارينجتون خطابًا متقنًا للغاية أمام المحكمة في أولد بيلي وكان المجلس مشدودًا جدًا لسماع هذه الخطبة البارعة والمترابطة جيدًا» (٢٦ فبراير ١٧٧٧). وبالمثل من ران Rann، فقد كان التزين في اللبس عاملًا مهما في ظهور بارينجتون تلك الليلة. وفقًا لصحيفة General Evening Post: «لقد أثار تغييرًا في صورة الموضة لدى الرجال النبلاء Gentlemen»، إذ ظهر قبل ذلك في Old Bailey و«شعره مصفف على أحدث طراز [وهكذا]؛ مرتديًا ملابس متناسقة الذوق تمامًا. ممسكًا بعصاً ذات رأس ذهبي، مع زوج مناسب من الجوارب، وأبازيم أرتوا الأنيقة. باختصار... إنه أكثر مجرمٍ أناقةً شوهد على الإطلاق في أولد بيلي» (١٤-١٦ يناير ١٧٧٧).

سعى مشاهير المجرمين أيضًا إلى الحصول على الاهتمام في مساحات التواصل الاجتماعي في لندن، هناك، حيث يمكن للجمهور المشاركة في صنع المشاهير. إذ أدت كارلتون - بعد محاكمتها - دورها في مسرحية The German Princess، التي عُرضت في أبريل ١٦٦٤، والتي لاقت شعبية على ما يبدو، على الرغم من أن صموئيل بيبس Samuel Pepys لم يعجبه الأمر. لا شك أن شيبارد كان متحمسًا للاهتمام الذي تلقاه بالفعل من الصحافة، وعاد من ثَم إلى أماكنه المألوفة في لندن بعد هروبه الأخير في أكتوبر ١٧٢٤، حيث قام بالسطو على سمسارٍ للمرهونات، وارتدى ملابس رجل نبيل، وزار إحدى متاجر Brandy. أما كوكس فقد ارتدى ملابس تشبه «إلى حد ما طراز مثليي الجنس»، كما حضر السباقات (Anon., 1773a, 9, 25). وبالمثل، ظهر ران في السباقات

والحمامات الصحية «Spas»، وهو يرتدي ملابس شبيهة بمن هناك عندما ظهر في سباقات بارنيه Barnet، حيث في التعليق الساخر لأحد كتاب سيرته الذاتية: «كان يتبعه المئات من جانب واحد من حلقة إلى الجانب الآخر منها، أولئك الذين كان فضولهم يدفعهم بحماسة لرؤية العبقري الذي كانت مآثره ومغامراته سيئة السمعة منتشرة في العالم أجمع. وتعليقًا على هذا الاهتمام الواسع، كتب أحد المراقبين أن: «هذا الظرف يثبت التصرف الغريب لشعب إنجلترا، الذي يشعر بالسعادة أيضًا لمجرد رؤية أمير، أو شخصية وطنية، أو قاطع طريق. لا تهم ماهية الشخص، بقدر ما يجب أن تكون الشخصية مميزة فقط، وهذا يكفل لهم أن يكونوا على يقين من أن الغوغاء سيتبعونهم».

تمثلاتٌ (نماذج) مرئية:

إن وسيلة التصوير الشخصية (البورتريه) ذات الشعبية المتزايدة، والتي وصفتها شيريل وانكو بأنها «النوع الأكثر صلة بالمشاهير بسبب الطريقة التي تحفل بها بصريًا بالفرد (المصوَّر)، وتدعو المشاهدين إلى فعل الشيء نفسه»، مقدمةً وسيلة أخرى للترويج للمشاهير (٢٠١١، ٣٥٧-٣٥٨). وفي القرن الثامن عشر، أصبح فن الرسم «فنًا عامًا بلا منازع»، حيث عُرضت الصور المرسومة على نطاق واسع وتحولت في كثير من الأحيان إلى، نوع من المطبوعات المنقوشة غير المكلفة، وانتشرت على نطاق واسع. وقد أعلن الفنانون عن مهاراتهم واجتذبوا إليهم المزيد من الأعمال، من خلال تصوير المشاهير، وحتى من هم من المجرمين.جميع المجرمين الذين تمت مناقشتهم في هذه المقالة كانت لديهم صور شخصية، أو صور بالحجم الكامل منشورة لهم، كما تم تصوير بعضهم أيضًا في مطبوعات تظهرهم وهم يرتكبون جرائم، أو أثناء وجودهم في السجن، أو

عند ظهورهم في قاعة المحكمة. ولسوء الحظ، فنحن لا نعرف سوى القليل عن مدى مشاركة أصحاب تلك الصور في الوقت الذي كانت تُرسم فيه أو تُصنع. كان على أحدهم أن يوافق، على الأقل، عندما يُقيد دخوله إلى سجن نيوجيت Newgate، وربما اقتضى الأمر مقابلًا ماديًا، أن يجلس إلى فنان، وهناك بعض الأدلة تشير إلى قيام المجرمين بذلك. ومن ذلك أن إحدى الصور الثلاث لماري كارلتون، التي نُشرت كواجهة لكتابها «قضية السيدة ماري كارلتون - Case of Madam Mary Carleton» عام ١٦٦٣، قد «تم التقاطها بأمرها الخاص». أعرب زوجها، وكذلك المدعي العام في القضية المرفوعة ضدها، جون كارلتون، عن دهشتهما من «الثقة التي لا مثيل لها، حتى تسمح لنفسها بتصوير وجهها المزيف والكريه رسمًا، ومن ثم نشره».

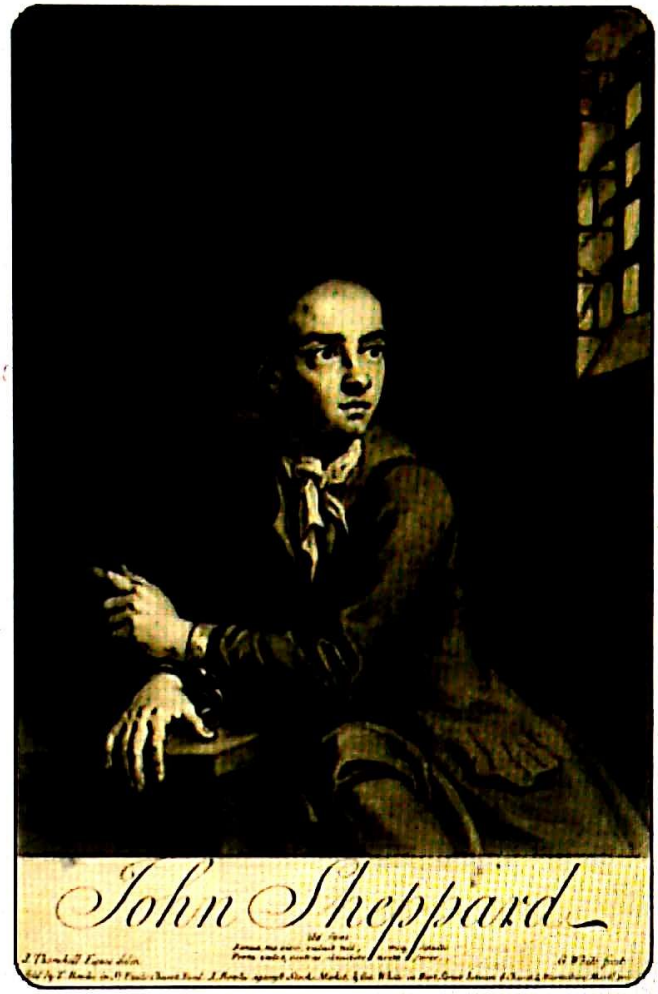

(Figure 1)

National Portrait Gallery, D40697. ©

Telegram:@mbooks9

National Portrait Gallery, London.

ولعل أبرز صورة لمجرم مشهور في القرن الثامن عشر هي تلك العائدة إلى جاك شيبارد Jack Sheppard، والتي رسمها رسام الملك جورج الأول، السير جيمس ثورنهيل Sir James Thornhill ، والتي صوّرها (على ورق مطبوع) جورج وايت على الفور وبيعت مقابل شلن (الشكل ١). نظرًا لأننا لا نعرف كيف تم رسم هذه الصورة، فمن الواضح أن شيبارد Sheppard قد أثر على محتواها. فكما ذكرت صحيفة London Journal، أنه عندما سُئل عن رأيه في الرسم

الأولي لوجهه، علق شيبارد قائلاً: أنه يعتقد أنه يجعله يبدو كبيرًا في السن نوعًا ما، «ليتم إجراء بعض التعديلات عليه (أي الرسم)» (١٤ نوفمبر ١٧٢٤). تتحدث مارسيا بوينتون عن أن أهمية الصورة المُخرجة-المنتَجة(التي يبدو فيها شابًا)، هي أنه "يتم تقديمه كشهيد شاب مرسوم بنظام الـ Meezzotint في التقليد التصويري الذي يعود إلى صور تشارلز ذا ماربتر (الشهيد)" (1993, 89). ومع إلحاقها بأبيات شعرية لاتينية أسفلها، فقد كان من الواضح أن الصورة موجهةً إلى جمهور النخبة.

كان من النماذج المتكررة لصورة شيبارد Sheppardهي إحدى صور ران Rann، التي رسمها فنان غير معروف عام ١٧٧٤، لمجرم شاب أيضًا تم تصويره في نيوجيت مع نافذة زنزانة في الخلفية (الشكل ٢). إلا أن ران، كعادته، يرتدي ملابس أكثر عصرية، ويرتدي قبعة ذات زهرة، وقميصًا مكشكشًا-منفوشًا، وربطة عنق وسترة بالية، حاملًا كأسًا من النبيذ مع زجاجة على الطاولة بجانبه. كما تم تصوير ماكلين، الذي كان موضوعًا لخمس مطبوعات مختلفة، وهو يقف بكامل طوله في منظر طبيعي ريفي، على الرغم من أن الصورة كانت معتمدةً على رسم أولي (اسكيتش) تم التقاطه في سجن جيتهاوس Gatehouse (الشكل ٣). وكما الحال في هذه الصورة، فقد كان مشاهير المجرمين يرتدون عادةً ملابس أنيقة تعكس تطلعاتهم الاجتماعية. حتى شيبارد تم تصويره في إحدى المطبوعات وهو يرتدي قبعة وصدرية (Waistcoat)، وجوارب، وأحذية ذات أبازيم.

(Figure 2)

John Rann, alias Sixteen-String Jack by A.R. (1774)

British Museum 1902, 1011.7321. ©

The Trustees of the British Museum

All rights reserved.

(Figure 3)

The Ladies Hero or the Unfortunate

James McLeane Esqr. (1750)

National Portrait Gallery, D9435. ©

National Portrait Gallery, London.

يحاجج بوينتون بأن هذه الصور قد أدت إلى التطبيع مع المجرمين، لأنها عرضت «أشخاصًا لا تُظهر سماتهم الخارجية، أو سلوكهم أيّ علامة تشي بشخصياتهم التي يفترض أن تكون غير سوية»، ومن ثم إضفاء الشرعية على ما يمارسونه من الانحراف الاجتماعي؛ «ترتبط تلك الصور (البورتريهات) الشخصية، بشكلٍ لا ينفصل عن التمكين» (١٩٩٣, ٨٣; ٢٠١٣, ٢). وفي حين صحة الخبر، بأن أوضاع الأشخاص وملابسهم في هذه الصور كانت محترمةً وفقًا للتقاليد، إلا أن الصور الشخصية(البورتريهات)، والصور الأخرى كثيرًا ما تشير إلى إجرام أولئك الأشخاص. لقد كان العديد منهم في السجن، وتم تصوير ويتني Whitney وشيبارد Sheppard وبارينغتون Barrington، مقيدين بالأغلال.

يُنبئ التعليق على الصورة المنشورة لـ(ران Rann) المشاهدَ أنه «الآن محكوم عليه بالإعدام ... بعد محاكمته ١٧ مرة». فشلت واحدة فقط من المطبوعات الست المعاصرة لبارينغتون Barrington في الإشارة إلى جرائمه، وهي صورة مرسومة له بملابس أنيقة بواسطة ويليام بيتشي (الذي كان عليه لاحقًا أن يرسم صورة للملكة)، والذي قد يكون في الواقع خطأً، أو إسنادًا خاطئًا إليه. تجسد صور ماكلين Maclaine جرائمه، أو تظهره مقيدًا في المحكمة، أو وهو يعاني في السجن في بعض الأحيان. أما في التجسيد الكامل لصورته، فقد تم تصوير قناع (كما هو مستخدم في الحفلات التنكرية، وكذلك أيضًا من قبل قاطعي الطرق) ملقًى على الأرض بجواره (الشكل ٣). ريثما يكون بوينتون على حق في أن إنشاء هذه الصور ذهب إلى حد ما نحو تقديم هؤلاء المجرمين في ضوء إيجابي، إلا أن انحرافهم نادرًا ما كان مخفيًا، وفي عدد قليل من المطبوعات تم تصويره على أنه تهديد. في أحد المشاهد، يظهر ماكلين Maclaiene مع شريكه بلونكيت، وهما يسرقان اللورد إيجلنجتون تحت تهديد السلاح، في حين أن مطبوعة تظهر بارينجتون «اكتشف أنه يلتقط جيب الأمير أورلو» في مسرح كوفنت جاردن تصور صراعًا شبه عنيف.

ومع ذلك، يبدو أن نشر هذه المطبوعات وتوزيعها قد ساهم في جعل تلك الشخصيات مشهورة. وفي حين أننا لا نملك دليلاً مباشراً على كيفية تفسير المشاهدين لها، إلا أن المهتمين بمراقبة مثل هذه الظواهر يخشون بالتأكيد أن هذه التصويرات (التمثيلات) تعلي من قيمة أصحابها في ذهن الجمهور. زعمت قصيدة مجهولة المصدر في المجلة البريطانية أن الصورة المعاد تمثيلها على يد ثورنهيل منحت لشيبارد «كثيرًا من الشهرة» (٢٨ نوفمبر ١٧٢٤، ٣)، في حين اشتكى هوراس والبول من أن المنشورات، وكذلك القصص المنشورة حول

حياة المجرمين مثل ماكلين Maclaine كانت «قد قُدّمت مع قدر كبير من الاستعراض»، كالممنوح لشخصيات عامة مهمة مثل الجنرال الفرنسي مارشال تورين Marshall Turenne (Lewis, 1937-83, xx, 199).

كان للرسامين والمصورين القدرة على الوصول إلى المجرمين (المساجين) في نيوجيت، نظرًا لطبيعة السجن المفتوحة فيما قبل إعادة تنظيمه(إصلاحه). ويجدر القول أن منح الإذن بالتحدث إلى السجناء كان عملاً مربحًا للمسؤولين عن السجن، وكان جميع المشاهير الذين نوقشوا في هذه المقالة يستقبلون العديد من الزوار، وغالبًا ما كانوا من ذوي المكانة النخبوية. فقد زيرّت كارلتون من قبل «عدة مئات»، بما في ذلك بيبيس و«العديد من الأشخاص ذوي القيمة». وبالمثل، فقد اشتمل زوار وايتني المتعددون Whitney على عدد ضخم من الرجال النبلاء. كما زعم سجان شيبارد Sheppard أنه تحصّل على ٢٠٠ باوند، وذلك أنه يأخذ من الزائر ٤ شلن، محاججًا أنه قد أدخل ألفًا من الزائرين. بعد إدانة ماكلين بتهمة السطو على الطريق السريع في عام ١٧٥٠، اشتكى واللبول Walpole من «الغضب السخيف (غير المبرر)... من الذهاب إلى نيوجيت»، مدعيًا أن ثلاثة آلاف شخص زاروه يوم الأحد بعد الحكم عليه بالإعدام! (Lewis, 1937-1983, xx, 199) . وكما تشير نيوجيت ليمنتيشن Newgate's Lamentation، وأيضًا the Ladys Last farewell of Maclean ، فإن العديد من هؤلاء الزائرات كانوا طبقة النخبة من النساء (Anon, 1750d). ويُزعم أن زوار كوكس كانوا أقل احتراما؛ «الغالبية العظمى» من «الأعداد الكبيرة من الناس» التي زارته في نيوجيت كانوا من النساء، مما أثار التعليق الساخر في إحدى السير الذاتية، والتي مفادها أن «الكثير منهم كانوا الأجمل، وعلى ما يبدو، الأكثر ودية (الأسمى منالًا) فيما بين الجنسين».

Telegram:@mbooks90

.(Anon., 1773b, 24)

وهنا كوكس Cox الذي ادعى أن أولئك الذين سمحوا للزوار برؤيته قد حصلوا على «حفنة من المال من خلال إظهاري كعرض تقديمي، وهو لربما ما لم أحصل عليه من خلال السرقة»، مما يشير إلى أنه لم يكن مرتاحًا لكل هذا الاهتمام. وليس من الواضح - لنا - ما إذا كان السجناء (حينها) قادرين على رفض الزيارات؛ فقد ذُكر أن كوكس «كان يكره الظهور العلني لنفسه في برايدويل Bridewell [دار الإصلاح]، ولذا لم يسمح بالدخول إلى لمعارفه المحدودين»، وفي نهاية الأمر يبدو أن ضباط السجن هم الذين كانوا يتحكمون في وصول الزوار (Anon., 1773a, 24, 26). وبرغم أن كارلتون قد اشتكت من «المعاملة القاسية (الاستغلال القاسي)» الذي تلقته من الزوار وحاولت تجنبهم عن طريق إخفاء وجهها خلف الـhood أو غطاء الرأس، إلا أن معظم المشاهير الإجراميين رحبوا بالاهتمام وأثبتوا وجودهم بالفعل لزوارهم (Kietzman, 2004, 261-263). أما وايتني فقد «تصرف بنوع من الفخر والتبختر، كما لو كان يبدو مسرورًا بغرور شعبي، كما لو كان يقدم عرضًا حصريا من الـ raree-show (Anon., 1693c) . وفي المقابل، كافأهم العديد من الزوار، وخاصة النخبة من الرجال والنساء، على ما قدموه من جهود بالصدقات والهِبات، حتى عندما لم يكونوا نادمين لما اقترفوا. ويبدو أن السجناء يستمتعون بكونهم مركز الاهتمام، لكنهم أيضًا يستغلون الفرصة لتحقيق الربح. شيبارد «كان دائمًا مبتهجًا وممتعًا ... يحول كل ما قيل إلى مزحة وفكاهة»؛ حتى أنه لطخ معصميه بالدماء «من أجل الحصول على التعاطف والتبرعات من المتفرجين». هذه الزيارات دفعت المدانين من الزائرين تقديم التماس إلى الملك، ليضمن عقوبات مخففةً أو يعفو عنهم، وقد امتثل البعض لذلك، بالرغم من أن هذه الالتماسات لم تكن ناجحة، باستثناء

بارينجتون (انظر أدناه).

الردود: فيما بين الشعبية والنخبوية

دعونا نقل أن مشاهير الإجراميين لم يحظوا بالسيطرة الكاملة على قصصهم (التي نُشرت)، إذ كانت - أي القصص - موضعًا لتُحكى بأي شكل يخدم مصلحة دار نشرٍ (مطبعة) متعطشة لنشر أقاصيص دراماتيكية، وهو الشكل الذي نذر فيه إدانتهم بالجرائم، وكما رأينا سلفًا، ربما تبنى أسلوبًا ساخرًا. وأيًا يكن، فقد لعب أولئك المجرمون دورًا هامًا للغاية في الكيفية التي ظهروا بها، ورآهم الناس عليها، عن طريق توفيرهم المحتوى لصناعه وكاتبيه، من الفنانين والناشرين، وكذلك عن طريق أسلوبهم وفِعالهم في قاعات المحاكم، والسجون، وكذلك في العموم. وبذلك فهم قد ارتأوا تحقيق الانتباه والتعاطف، وخلقوا روابط (خيالية) وفي بعض الأحيان حقيقة، مع عموم الناس(من مختلف الطبقات). ولكن كيف لنا أن نعرف أن الجمهور استجاب لهم بمنحهم درجة من الإعجاب المبالغ فيه والتفاعل، وكذا منحهم مكانة المشاهير؟ ونقول: إن آلاف الأشخاص الذين اشتروا صورًا شخصية ومطبوعات مكتوبة، وزاروا المجرمين في السجون، وحضروا جلسات الاستماع والمحاكمات وعمليات الإعدام، كل ذلك يشير إلى درجة عالية من الاهتمام العام أو الجمعي، ولكنه دليل جوهري - بغض النظر عن كونه مجرد أقاصيص - ويقدم الدليل الأكثر إقناعًا على أن سكان لندن غالبًا ما كانوا على المستوى الشخصي، وبشكل إيجابي، ينظرون إلى تلك الشخصيات في نظر عموم الناس.

لقد تمكن الناس من التعرف بسهولة على تلك الشخصيات وغيرها في الأماكن العامة، وذلك بفضل العروض المرئية التي رأوها، فكما يقول بوينتون أنه بحلول

القرن الثامن عشر، ساهمت ممارسة رسم البورتريه بشكل كبير في القدرة على التعرف على الأفراد في الأماكن العامة (١٩٩٣، ٦١). وقد شهد ويليام هيل أيضًا، وهو نائب للأميرة أميليا، في محاكمة رانRann الأخيرة بأنه رآه بالقرب من مسرح الجريمة، قائلاً «إنه ليمكنني أن أميز ران بمجرد النظر، وبشكل ممتاز».

كما أشير زعمًا أن بارينجتون قد شوهد علنًا في عدة مناسبات، ليس فقط في لندن ولكن أيضًا في لينكولنشاير وباث ونيوكاسل ودبلن، مما دفع الناس إلى اتخاذ خطوات لحماية ممتلكاتهم الثمينة. وعندما شوهد في سباق في إنفيلد في سبتمبر ١٧٩٠، قيل أن «العديد من الأشخاص شاهدوه بدقة». وهكذا نقول: أن كل ما تم نشره من روايات وصور مطبوعة عنه يعني أن سمعته قد سبقته. في عام ١٧٨٣، عندما مثل أمام محكمة أولد بيلي بعد نفيه كشرط للعفو (إذ فشل في مغادرة البلاد سلفًا وفقًا للتعليمات)، قال للقضاة: «لقد قُبض عليّ بدعوى الاسم فقط!».

وبسبب هذه الشهرة الواسعة، تحدث الناس عن هؤلاء المجرمين، و - كالعادة - بينما أدان البعض جرائمهم، وقف البعض الآخر إلى جانبهم. وقد سجل بيبس محادثة أجراها مع السيدة إليزابيث باتن بعد تبرئة كارلتون في عام ١٦٦٣، حيث «أكدت(أضمرت) السيدة باتن حقدًا شديدًا ضد الأميرة الألمانية وضدي كذلك، لكوني على رأس المدافعين عن ذكائها وروحها، ولأنني سعدت حينما تمت تبرئتها في الجلسات» (لاثام، ماثيوز، ١٩٧٠-٨٣، الثالث، ١٧٧، ٧ يونيو ١٦٦٣). وفقًا للكاتب المعاصر فرانسيس كيركمان، في عام ١٦٧٣، كان كارلتون «الحديث الوحيد لجميع المقاهي في لندن، وبالقرب منها» (١٦٧٣، ٩٢). بصفته «اللص اليعقوبي»، كان ويتني «موضعًا للحديث عنه كثيرًا في المطلَق بسبب مآثره

العظيمة» (ولا شك بسبب سياسته أيضًا)، ولكن كما هو الحال مع معظم قطاع الطرق، كانت الآراء منقسمة: «أحد الحزبين مصطرخًا يجادل أنه شخص جيد جدًا» «رجل نبيل، رفيق شجاع وجريء... وعلى النقيض كان الطرف الآخر... يصطرخون أيضًا؛ كونه من أعظم الأشرار". وفقًا لديفو، فإن هروب شيبارد من نيوجيت قد «أحدث ضجة كبيرة في المدينة، لدرجة أنه كان يُعتقد أن جموع الناس سيغضبون منه، فلم يكن هناك حمالٌ على سبيل الحب أو المال، ولا حتى سُمح بالدخول إلى إحدى الحانات، وذلك بالنسبة للجزارين وصانعي الأحذية والحلاقين، ممن كانوا جميعًا منخرطين في الجدل والرهانات» حول شيبارد Sheppard (١٧٢٤، ٢٧). كان ماكلين Maclaine كذلك موضوعًا متكررًا لمراسلات والبول Walpole في فترة ١٧٤٩-١٧٥٠؛ حيث (ألفى والبول القصة مثيرة للإعجاب، وذلك على الرغم من أنه كان أحد ضحايا ماكلين)، بينما كان ران Rann موضوع تكهنات متكررة حول مصدر لقبه، «جاك ذو الستة عشر سلسلة». (وهو ما أثيرت حوله عدة نظريات)، وتجدر الإشارة هنا إلى المناظرة بين جيمس بوزويل James Boswell وصموئيل جونسونSamuel Johnson. فبينما أشار بوزويل إلى أن ران «كان مميزًا في التأنق في لباسه»، علق جونسون بشكل أكثر إيجابية قائلاً: «جاك ذو الستة عشر وتزًا/سلسلة يفوق ما تعارف الناس عليه».

إن الدليل على التعاطف والتّحنان الذي تلقاه المشاهير الإجراميون، حتى من أوساط النخبة، يمكن رؤيته في حقيقة أن الضحايا - أنفسهم - رفضوا أحيانًا مقاضاة المجرمين، وكذا رفض الشهود التعرف عليهم، أو قاموا بالاستشهاد بصفات حسنة لهم أثناء المحاكمات، ورفضت بالتالي هيئات المحلفين إدانتهم، بل وتقدمت النخب بالالتماس نيابة عنهم للحصول على عفو أو تخفيف

العقوبات. لقد تمت تبرئة ران في أربع من محاكمات أولد بيلي الخمس، وبارينغتون في أربع من سبع محاكمات (بما في ذلك إحداهن التي في دبلن). وفي أثناء إطلاق الحكم الذي أعقب إدانة بارينجتون في يناير ١٧٧٧ بتهمة نشل آن دودمان Ann Dudman، «ظهر رجلٌ نبيلٌ متوسلاً، ويبدو صديقًا للسجين، طالبًا العفو عن العقوبة المعتادة لهذه الجريمة على هذا الأساس غير العادي، وهو أن السيد بارينجتون نشأ وقضى حياته بطريقة مهذبة، ولن يكون قادرًا على الخضوع للمصير الشاق الذي يواجهه اللص العادي». ونتيجة لذلك، تم تخفيض العقوبة المعتادة البالغة سبع سنوات من النقل (نقل الحصى والرمال، والتربة...) (والتي يجب أن تقضى على سفنٍ كالسجون Prison Hulks، نظرًا لأن تلك المهمة لم تكن محور الاهتمام في ذلك الحين)، إلى ثلاث سنوات، ولكن عندما زُعم لاحقًا أنه حتى تلك العقوبة أنها شديدة للغاية، «رجل نبيل ذو رتبة ومكانة، [تأثر بشدة لمظهر بارينجتون] الهزيل والقذر، لدرجة أنه تقدم بطلب لإعفاء الجزء المتبقي من عقوبته» (والذي تم منحه إياه مقابل النفي).

ولا يسعنا - هنا - إلا أن نتكهن بالسبب الذي دفع العديد من الناس إلى دعم هؤلاء المجرمين، ولكن يبدو أن عامة الناس قد اقتنعوا بادعاءاتهم، وانطلت عليهم الحيلة، وانجذبوا إلى إمكانية التعبير عن الارتباط العاطفي بشخصيات يمكن منحها ذاك التعاطف. وبالنسبة للطبقات الدنيا (وربما الأخرى)، فيمكن احتمال أن المراقبين منهم كانوا مقتنعين بالادعاءات التي تقضي بعدم مشروعية تلك الاتهامات، أو بقسوة الهقوبات، وربما أكنوا الاعتقاد بذريعة ارتكاب الجرائم لإحدى دوافع الضرورة؛ بل لربما شاركوا تلك التجارب شخصيًا. وعلى نحو أكثر تأملاً، ربما انجذبوا إلى إمكانيات الحراك الاجتماعي والحرية التي أظهرتها الحياة المُعاشة خارج القيود الاجتماعية العادية. وبهذا الشأن، جادلت ماري جو كيتزمان

Mary Jo Kietzman بأن «ظهور كارلتون في مظهر الأميرة الألمانية قد استقطب الخيال السوسيولوجي الجمعي، المتمثل في الرغبة في أن يكون الكل من العائلة الملكية Royal ،

وسنجد أن [القضية] لاقت استحسانًا لأنها تمثل إمكانية أن يتمكن أي شخص فعليًا، من تمثيل نفسه، إذا ما تمكن من تأليف (قصة حياته) ونشرها" (١٩٩٦، ١٠٦-١٠٧). وبالمثل، ووفقًا لليا ليبورج لوبورتييه Léa Lebourg Leportier، فإن قدرة شيبارد على التغلب على السلطات القضائية من خلال هروبه سمحت للقراء «بالهروب مؤقتًا من أكبال الأخلاق والسلطة» (٢٠١٦، ٣٨). بيّن ظهور كوكس وران Cox and Rann في السباقات، وهما يرتديان ملابس أنيقة، إمكانية احتكاك عامة سكان لندن بالمجتمع الراقي.

لقد كان الانجذاب للنخب مختلفا، فكما يشير مثال الرجل الذي حصل على عفو بالنيابة عن بارينجتون لتحريره من سجون السفن أو HULKS، فإن التعبير عن التعاطف مع المجرمين أعطى النخب الفرصة ليثبتوا قدرتهم على التعاطف. ومع ظهور الرواية العاطفية وثقافة الحنو والعطف في منتصف القرن الثامن عشر، أصبح من المألوف لكل من الرجال، وبخاصة النساء إظهار تعاطفهم مع الآخرين، وذلك حتى "فيما وراء الحدود الاجتماعية المتعارف عليها" (Hunt, 2007, ch. 1, quote at 36).

وقد تم التعبير عن هذه الحساسية بطريقة راقية (مهذبة) ولكنها علنية، بما يتضمن ذرف القليل من الدموع. لقد كانت الاستقراءات (المشاهدات) العامة، وقاعات المحاكم والسجون خير مثال على ذلك: فقد قام المجرمون الذين يطمحون إلى الحصول على مكانة بين المشاهير بصياغة خطابات تستحث

جمهورهم إلى معاملتهم كمظانّ مستحقة للتعاطف، بينما يسعون أيضًا (بشكل مباشر وغير مباشر) إلى التأثير على هيئة المحلفين والقاضي(Dixon, 2015, 170-174). عندما تم استجواب ماكلين من قبل قاضي JP قبل محاكمته، وفقًا لرواية معادية(عنيفة) من رجل الدين The Ordinary في نيوجيت، إذ يقول: «لقد أظهر روحًا ملؤها الغدر، والوضاعة أمام العدالة، [و] ذرف الكثير من الدموع، مما أدى إلى قيام القسم الأنثوي من جمهوره بمرافقته [حتى السجن]، بل وقام البعض بإهدائه محفظة(حفنة) من المال". لقد استمر هذا السلوك في المحاكمات، عندما أثار خطاب دفاع جيمس ماكلاين، كما هو موضح في لدى الصحافة، وهو رجل الطريق النبيل لدى المحكمة، دموعَ نخبة النساء اللاتي يحملن المراوح (اليدوية) في الشرفة؛ وفي منشور مغاير (رواية مختلفة)، تم تصوير نساء باكيات مماثلات (ورجل واحد على الأقل) أثناء زيارتهن لماكلاين في نيوجيت قبل وقت قصير من إعدامه. وبما أن الجنس ذو حساسية أكبر وسلطة أخلاقية أعلى، فإن النساء، وخاصة أولئك المنحدرات من خلفيات محترمة، كن حريصات على إظهار حساسيتهن علنًا لبلوى تلك الأنفس الأقل حظًا(في الحياة) (Barker-Benfield, 1992, xxvii, 23-26).

لكن التعاطف لم يكن مقتصرًا على النساء فقط (Carter، ٢٠٠٥). فبالنسبة لكل من المجرمين الذكور الذين يسعون إلى الحصول على مكانة المشاهير، وأولئك الذين يراقبونهم، فقد أتاح ذلك إمكانية إظهار طابعهم (تميزهم) الخاص. من المزعوم أن ماكلاين لم يقدر على إلقاء خطابه قبل النطق بالحكم عليه في المحكمة، وذلك بسبب «ندمه المفرط... إذ كان من الواضح أن ملامحه بدت وكأن عليها ندمًا حقيقيًا على ما اقترفه من جرائم» (Anon., 1750c). وفي حين أن هذا قد فشل في إكساب ماكلاين أي نوعٍ من الرحمة أو الشفقة، فإن بارينجتون

Barington، الذي كانت الدموع بالنسبة له «جزءًا أساسيًا [من ذخيرته الفنية]»، فقد نجح في استخدام لغة الحساسية لمجانبة الإدانة أربع مرات! وعندما حوكم في دبلن، قال للمحكمة: «من المستحيل لأي عقل يمتلك حساسية وتفكيرًا ألا يكنّ مشاعر التعاطف لصالحه»؛ لتتم بعدها تبرئته! وبالمثل، فعندما حوكم في King's Bench بتهمة الخروج عن القانون، رسم صورة محلية عاطفية لنفسه، متمثلًا في رب أسرة: ومن ثم « طلب من كل شخص في المحكمة أن يضع نفسه في موقف الرجل الذي قد يصدر ضده إعلان بالخروج عن القانون، مفترضًا أنه: ربما لا يعرف شيئًا عن ذلك، أو لربما يكون عائداً إلى منزله مع عائلته؛ وفي لحظة تلقي تهنئتهم بعودته، يُنتزع من أحضانهم، [و] يُحتجز في سجن مقيت. والعجيب أنه لم يُحاسب على كسره للقانون. وأيان كان الرجال في صفة محلفين، أو قضاة، أو حتى فقط على مستوى محققين في قاعة المحكمة، أو زوار السجن، ، مصدقين لتلك الادعاءات العاطفية، فإنهم قد تمكنوا من استبقاء تحكمهم في أنفسهم؛ إذ لا دليل على أن المراقبين من الذكور قد دخلوا في نوبة من النشيج بالبكاء.

ربما انجذبت النساء أيضًا إلى المعلومات المقدمة في النصوص المطبوعة حول الحياة العاطفية للمجرمين المشاهير، وهو ما كان مثالًا على الاهتمام العام المتزايد بالحياة الشخصية في ذاك الوقت، وسمة رئيسية كذلك لثقافة المشاهير الحديثة. لقد تم تصوير ماكلين Maclaine وكوكس Cox كرجلين عازبين على أنهما جذابان بشكل خاص للنساء، في حين تم أيضًا إيلاء اهتمام كبير لـ «علاقات الحب» بالتطواف حول ويتني وشيبارد وران,Whitney, Sheppard and Rann، والتي كانت في بعض الأحيان ذات عواقب مأساوية. في «The Jacobite Robber»، ذكرت إحدى النساء أن ويتني كان «رجلًا خيريًا للغاية...

بالإضافة إلى كونه محبًا للغاية إلى السيدات، اللائي كن يمنحنه عمومًا صفة اللص الملتزم المدني» (Anon., 1693b, 22). وبالرغم من كل هذا، انتهى به الحال إلى أن عشيقته هي التي سلمته إلى السلطات، مما أنتج لنا أغنية بعنوان «رسالةٌ تحتضر؛ من ويتني إلى تلك التي طعنته في ظهره Whitney's Dying Letter to his Mistriss that betray'd him» التي خانته (Pepys, 1929-1932). تم إلقاء اللوم في سقوط شيبارد على ضعفه تجاه عشيقته إليزابيث ليون Elizabeth Lyon المعروفة باسم إدجوورث بيس (ديفو، ١٧٢٤، ٢-٣). من الواضح أن ران كان لديه حبيبتان، إليانور روش وكاترين سميث Eleanor Roache and Catherine Smith، وكلاهما حظيا باهتمام خاص في سيرته الذاتية، إذ أعلن أحد العناوين احتواءه على «مغامراته ومشاريعه، وهروبه المتكرر من العدالة، وعلاقاته الغرامية مع العديد من السيدات». كانت روتش، والتي -على ما يبدو- كانت الفضلى لديه، موضوع أغنية شعبية بعنوان «فراق الآنسة روتش وجاك ران Miss Roach and Jack Ran's Parting»، والتي تدور أحداثها قبل إعدامه مباشرة.

كانت النساء أقرب إلى مشاهير الإجراميين أثناء القرن الثامن عشر، وذلك باعتبارهن ذوي سلطة، وقارئات، ومراقبات للحدث، حيث أن جميع المشاهير الذين تم تحديدهم في هذه المقالة باستثناء ماري كارلتون Carleton (والتي وقعت جريمتها الأكثر شهرة في عام ١٦٦٣) كانوا من الرجال. وهذا ليس لأن النساء لم يكن بمقدروهن أن يصبحوا من المشاهير في ذاك الوقت؛ فعلى الرغم من مساوئ تعريض المرأة لتدقيق المجال العام، إلا أن العديد من الممثلات، وأبرزهن سارة سيدونز، أصبحن من المشاهير، كما قام بذلك العديد من البغايا. ولكن النساء نادرا ما ارتكبن تلك الأنواع من الجرائم، ولا سيما جرائم السطو على

الطرق السريعة، التي كانت أكثر عرضة للاشتهار ومعرفة الناس بها؛ لأنها لم تكن بذات تهديد كبير. لقد تم إدانة أنواع الجرائم النسائية التي جذبت أكبر قدر من الاهتمام العام، وهي القتل والتزوير، على نطاق واسع، لذلك في حين أن القاتلة سارة مالكولم والمزورة كارولين رود حققتا شهرة كبيرة، إلا أن هناك القليل من الأدلة التي تشير إلى أن الجمهور كان متحمسًا لهما. بدلاً من ذلك، في الوقت الذي كان يتم فيه الاحتفاء بالنساء لحنانهن وحساسيتهن، وجد الجمهور أن نهج رود «الذكوري» القتالي في كتاباتها المطبوعة الكبيرة «مزعج» (Andrew, McGowen, 2001, 132, 209).

لقد قيل أن السعي نحو الشهرة بتلك الطرق التي ذكرنا ظاهرةٌ أنثوية، مما يجعل من الصعب على الرجال احتضانها، ولكن هذا لا يبدو صحيحًا (Zionkowski، 2009، 169). فيبدو أن مشاهير المجرمين الذكور ممن ناقشناهم في مقالتنا هذه قد عانوا من من القلق، فيما يتعلق بأمر الجنس (أو تصرفوا بأي شكل من الأشكال للتعويض عن ذلك)، بل يبدو أنهم استمتعوا بالفعل بالاهتمام الذي تلقوه (كرجال) من المعجبات بهم. فمثلما يستطيع الرجال أن ينخرطوا في المشاعر العاطفية، فإن بإمكانهم أن ينضموا إلى ثقافة المشاهير؛ لقد اشتمل المشاهير الإجراميون على شكل جديد من الهوية الذكورية التي أصبحت ممكنة بفضل الصحافة والرأي العام.

خاتمة الفصل

إن ظهور المجرمين كمشاهير في القرن الثامن عشر "الطويل" يدعم الحجج القائلة بأن المشاهير ظهروا بالفعل في تاريخ إنجلترا في وقت مبكر عما هو معتقد، حيث شهدت أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، بفضل زيادة النصوص والصور المطبوعة، تغييرًا تدريجيًا في قدرة الأفراد خارج الهياكل الرسمية للسلطة وإمكانياتهم الخاصة(على الرغم من المساعدة اللاإرادية من قبل المحاكم والسجون) في الوصول إلى تمييزهم على مستوى العامة والاحتفاء بهم، فكما رأينا في حياة كارلتون وويتني وشيبارد. وبدعم من التوسع الزائد للصحافة وتصاعد مكانة العواطف، وذلك واضح في حالات ماكلاين وكوكس وران وبارينغتون، فقد اجتذب المشاهير الإجراميون المزيد من الاهتمام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، بالتزامن مع تزايد ثقافة المشاهير؛ لتشمل الفنانين والممثلين والكتاب.

سنجد أن المواقف تجاه مشاهير المجرمين كانت بالضرورة متناقضة. إذ لم يكن أحدٌ يريد أن يكون ضحية جريمة ما، وحتى لو ارتكبها «رجل نبيل» مهذب! وبما أن شرعية قوانين مكافحة السرقة لم تكن موضع شك، فقد كان الجمهور دائمًا ممزقًا بين الإنسانية الجذابة للمجرم الشهير وبين المعارضة الشديدة للجرائم التي ارتكبوها. علاوة على ذلك، أصبح قبول الادعاءات من مجرم مشهور أمراً متزايد الصعوبة، وذلك مع تصاعد الإظهار السلبي للجريمة في الصحافة في أواخر القرن الثامن عشر، وهو ما يشمل بالطبع، المخاوف بشأن التهديد الذي تفرضه جرائم العنف على النظام الاجتماعي. لقد تصلبت المواقف تجاه ماكلاين بعد محاكمته، وكذلك ادعاءاته حول مثال قاطع الطرق النبيل، جنبًا إلى جنب

مع ادعاءات كوكس وران اللاحقة،إذ لقيت كل التصريحات شكوكًا كبيرة من قبل المعلقين حيال هذا الشأن. وكما يحاجُّ أندريا ماكنزي: أنه من خلال «الأداء المفرط» لإيماءاتهم أمام العامة، وخاصة ادعاءاتهم بالكياسة والنبل، فقد أثارت تلك «التحديات السرية للسلطة» الانتقادات، وتمت إدانة جرائمهم في كثير من الأحيان (٢٠١٢، ٢٤٧-٢٥٦). تم إدراج ران Rann، آخر قاطع طريق التحق بركب المشاهير، من قبل Public Advertiser بسبب سلوكه المتفاخر أمام القاضي فيلدينغ Fielding، والذي، كما قيل، يستحق «أشد التوبيخ» (٢ يونيو ١٧٧٤). إلا أن بارينجتون كان آخر مجرم يمكن تحديده على أنه واحد من المشاهير، إذ تضمنت جريمته المتمثلة في النشل قدرًا أقل من العنف المتضمن في الجريمة، كما أثارت انتقادات أقل، ولكن على مدى مسيرته الإجرامية الطويلة ساءت سمعته حتى انحطت تمامًا، فقد وُصف على أنه «معروف عالميًا» ولكنه «مُزدرًى على وجه العموم». وكان هذا مضمنًا في كتابٍ أُسمي خطأً (مذكراتـ)ـه، والمنشور في عام ١٧٩٠، بعد إطلاق الحكم الأخير عليه. (Anon., 1790b, 3).

ومع انتقال بارينجتون إلى أستراليا عام ١٧٩١، تنتهي قصتنا. وبما أن هناك حاجة إلى مزيد من البحث، فسيكون من الصعب (حتى الآن) العثور على مشاهير المجرمين الذين أثاروا التعاطف العام وحصلوا عليه في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولكننا نجد أن المرشح المحتمل الأقوى هو إسحاق (إيكي) سولومونز Isaac (Ikey) Solomons، الذي حقق شهرة باعتباره متلقيًا (متاجرًا) للبضائع المسروقة، وذلك بسبب هروبه من الحجز عام ١٨٢٧ ورحلته الطوعية اللاحقة إلى أستراليا، وقد كانت سمعته غاية في السلبية، وعلى عكس المشاهير الإجراميين الذين تمت مناقشتهم في هذه المقالة لا يبدو أنه قد سعى إلى الشهرة من الأساس(Tobias, 1974; Anon., 1829). لم تعد

الظروف تخدم المجرمين ليصبحوا مشاهير في القرن التاسع عشر. لقد كان هذا بشكل جزئي؛ نتيجةً للتغيرات في أنواع المنشورات التي تم فيها تمثيل الجريمة. إذ رُفضت السير الذاتية الجنائية، وفي ذات الوقت تغير النهج التحريري للصحف، وتقارير المحاكمات، مما عنى أن التمثيل الإيجابي للمجرمين غدا أضيق اتساعًا (Shoemaker, 2017, 99-100). وقد تلقى بعض لصوص القرن الثامن عشر، وأبرزهم شيبارد وتوربينSheppard and Turpin، معاملةً متعاطفةً، في السياقات الأدبية والدرامية في القرن التاسع عشر، ولكن هذا كان مجرد تخيل تاريخي (أساطير).

كان رفض فكرة المشاهير الإجراميين نابعًا أيضًا من تغيرات أوسع في المواقف تجاه الجريمة والممارسات العقابية. لأنه؛ منذ أواخر القرن الثامن عشر، كانت فكرة الجريمة قد بدأت باعتبارها شيئًا يميل كل شخص لارتكابه إذا ما استسلم لإغراءات الخطيئة، لتحل - بعد ذلك - محلها فكرةٌ تفيد أن الجريمة كانت تجليًا لمظاهر الفساد الاجتماعي، وأصبح ممارسوها يُنظر إليهم شيئًا فشيئًا على أنهم جزء من «فئة إجرامية» منفصلة. أدت المخاوف المتزايدة بشأن الجريمة والصراع الاجتماعي إلى جعل المجرم شخصية أكثر تهديدًا -سيما في الفترة التي أعقبت الحروب النابليونية- وكذا شخصًا يفتقر إلى الخضوع للإصلاح في سجن منضبط، وبشكل صارم؛ بدلاً من منحهم التعاطف (الذي كانوا يتلقونه). علاوة على ذلك، أدى تقليل(التراجع عن) عقوبة الإعدام منذ عشرينيات القرن التاسع عشر إلى انخفاض كبير في عدد المدانين الذين أثار احتمال الموت الوشيك التعاطف معهم، في حين لم يعد الجمهور قادرًا على المشاركة في زيارات جماعية للسجون التي تم إعادة تنظيمها وبنائها. وأيما كان الحال، فإنه مع زوال موضة العواطف الجياشو، أصبح هناك حافزٌ أقل للبحث عن أشخاص

يصبحون محل التعاطف (Dixon, 2015, 121-122). إذ استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يعود المشاهير الإجراميون في الحياة المُعاشة موضوعًا للتعاطف، بتسهيلٍ من وسائل الإعلام دون أدنى شك. لقد تعاملت بعض الصحف في أواخر القرن التاسع عشر مع القتلة المدانين المحكوم عليهم بالإعدام بدرجة ملحوظة من التعاطف، لا سيما بعد التوسع الهائل في قراءة الجرائد، وظهور «الصحافة الجديدة» التي ترتكز عناوينها على الاهتمامات العامة(Wiener, 2007). انصرفت الأنظار بعد ذلك إلى قضية «célèbre» ، والتي تضمنت أناسًا في جانب الدفاع، متهمين بجريمةٍ، يقسمون أنها لم تكن من نصيبهم! ونأخذ مثالًا لذلك آرثر أورتن

"Arthur Orton" (the Tichbourne Claimant)

في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر، وكذلك زميلتاه بيتريس بيس، وفلورينس مايبريك Florence Maybrick and Beatrice Pace (المتهمتان بتسميم زوجيهما، في ١٨٨٩، و ١٩٢٨ على وجه التحديد). وهكذا، اصطُنعت لدينا نوعية جديدة من المجرمين ذوي الصيت.

وهكذا كان مشاهير المجرمين، ممن عاشوا في أواخر القرنين السابع عشر والثامن عشر ظاهرةً ثقافية مميزة ورائعة، بل وكانت ذات تداعيات مهمة، في فهمنا لتاريخ العدالة الجنائية، والشهرة! إن الحقيقة المفضية بأن قطاعات كبيرة من الجمهور يمكن أن تعامل المتهمين بالسرقة الإجرامية بدرجة من الإعجاب والتعاطف - على الرغم من مخاوف يخلقها التهديد الذي تشكله جرائم العنف- لَتشير إلى أن المواقف تجاه الجريمة في القرن الثامن عشر كانت أقل تشابهًا، وأقل عرضة للانتقاد مما تقرره الأبحاث الدراسية الموجودة (Shoemaker،

2017). لقد ارتكب كل من ويتني وشيبارد وماكلاين وبارينغتون Whitney, Sheppard, Maclaine and Barrington جرائم خلال فترات من موجات الجريمة المتصوَّرة بعد الحرب، وهي الأوقات التي وصفها المؤرخون بأنها حوادث من الذعر الأخلاقي. ومع ذلك، ففي حين استجاب المشرّعون لهذه الأزمات من خلال محاولة (بنجاح محدود) إنشاء وسائل جديدة لضمان إدانة من اعتُبروا المجرمين الأكثر تهديداً ومعاقبتهم بشدة، كانت ردود الفعل العامة مختلطة، فيما بين العديد من المراقبين الذين أضعفوا ذاك الاتجاه من خلال تبني موقف متعاطف، تجاه بعض من كانوا من المجرمين في نظر الجمهور. وبينما رأينا ادعاءات التعاطف قوبلت ببعض الشكوك، كان الكثير من الناس - لا يزالون - مهتمين بمعرفة المزيد عن حياة هؤلاء المجرمين وجرائمهم، وإنقاذهم من العقوبات القاسية، بدلاً من إدانتهم. وبهذا المعنى، كانت الجريمة كظاهرة جماعية مجردة أقل جذبًا لانتباه الناس، من القصص الشخصية الفريدة؛ وهذا يساعدنا في تفسير السبب وراء كون الملاحقة القضائية الانتقائية، والسلطة التقديرية (الحرية للقاضي أو المشرع) من السمات المهمة للعدالة في القرن الثامن عشر (King، 2000). وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت محاولات حشد الدعم العام والتشريعي للمعاملة القاسية للمجرمين، بما في ذلك اعتماد أشكال جديدة من الشرطة والعقاب، صعبة للغاية. (Hitchcock, Shoemaker, 2015, especially ch.5).

إذا ما رأينا التاريخ المتعدد الأوجه للمشاهير من حيث يعكس نفسه، فإن لمشاهير الإجراميين روايتهم الخاصة (أيضًا). ففي حين يوضح ليلتي Lilti أن الرومانسية والسياسة الجماهيرية أوصلت التطور في حالة (الشخصية المشهورة) للفنانين والسياسيين في القرن التاسع عشر، فسنجد -بالرغم من

ذلك- أن المشاهير الإجراميين قد ازدهروا في وقت سابق، ويرجع ذلك جزئيًا إلى توسع التصويرات المطبوعة للجريمة في أواخر القرن السابع عشر (Lilti, 2017, ch.7). وكما أدركنا - أشرنا سابقًا، فقد تم تمكين ظواهر أو نوعيات جديدة من المشاهير، وكان ذلك عادةً من خلال تغيير وسائل الاتصال، سواء في وسائل الإعلام أو من خلال ممارسات التواصل الاجتماعي. لقد مكنت التغيرات التي حدثت في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر عدداً صغيراً من المجرمين من الحصول على دعاية إيجابية، حيث استغلوا أقوالهم وأفعالهم. كما تمت مناقشة حياتهم على نطاق واسع في كل من الأماكن العامة والخاصة، في حين شجعت العوامل الثقافية، ولا سيما صعود الحركة الرومانتيكية العاطفية، الرحمةَ والتعاطف؛ وبهذا نقول: أن لتغير الثقافي يعد أيضًا محركًا رئيسيًا للمشاهير. وقد رأينا أن هذا النوع من المشاهير لم يستمر، بسبب تراجع الإحساس بالشفقة والعطف، وتغير المواقف العامة تجاه الجريمة وإصلاح النظام الجزائي. ولكن على مدى أكثر من قرن من الزمان، فإن الحقيقة القائلة بأن مجرمين كجيمس ماكلاين James Maclaine استطاعوا غرس نموذج إيجابي للشهرة، يؤكد لدينا - ليس فقط النظرة المهملة للمجرم - بل كذلك الطبيعة التمكينية المقتدرة لذلك النوع من الشخصيات المشهورة والمُحتفى بها، والتي ناقشناها في هذا المقال. لقد أُثير الجدل، حول ما إذا كان للمشاهير أن يمثلوا «عِمادًا محافظًا في المجتمع .. يصب إليها بمخاوفه الثقافية»، ولكن ظاهرة المشاهير المجرمين تخبرنا أن الواقع يمكن أن يتحول؛ ليغدو المشاهير رؤوس الهدم والتخريب، واستجلاب العطف، وكذلك تقويض الجهود الرامية إلى السيطرة على الجريمة.

Telegram:@mbooks90

الفصل الثاني :

سيكولوجية إلقاء اللوم على الضحية

١- عندما يشرع البشر في الاعتقاد بعدالة العالم، وأنهم ذوو حصانةٍ ضد مساوئ الأقدار وأن الأشياء السيئة لن تمسهم، قد يختل وجدانهم وتتشرد مشاعرهم وقد تصل الى حد بعيد وهو إلقاء اللوم على الضحية:

في شهر أغسطس، أعاد الكوميدي والكاتب السابق لبرنامج «Inside Amy Schumer»، كورت ميتزجر Kurt Metzger، إشعال حوار وطني جديد حول قضية إلقاء اللوم على الضحية عندما نشر سلسلة من التشدق بالكلام على وسائل التواصل الاجتماعي، معترضًا على طرق تقديم النساء بلاغاتهن كضحايا لبعض الجرائم، وتأثير تلك البلاغات على المتهمين. وذلك بعد أن قام مسرح «Upright Citizens Brigade» في نيويورك بحظر أحد المؤدين بعد اتهامات عديدة من قِبل النساء له بارتكابه لجرائم الانتهاك والعنف الجنسي ، باشر ميتزجر هجماته على فيس بوك.

«أعرف ذلك لأن النساء قلنَه وهذا كل ما أحتاجه! لا يهمك من هم. إنهن مجموعة من النساء/مجرد نسوة! يمكننا الاتكاء على أولئك النسوة تمامًا كما يمكنني أن أفعل بكتابي المقدس! إنه (مجرد) كتاب، وكالنساء تمامًا، لا يقدر على الكذب! كان هذا نص ما كتبه ميتزجر في منشور على حسابه في فيسبوك والذي تم حذفه لاحقًا. ثم مضى في انتقاد النساء على ما يظهر لنا؛ بسبب عدم ذهابهن إلى الشرطة، مضيفًا: «إننا إذا طلبنا منهن حتى التصريح برواية غامضة/غير صريحة لما حدث قبل أن يطالبونا بالتصديق، فذاك في حد ذاته بمثابة إعادة اغتصاب لهن!»

لا شك في أن رئيسة ميتزجر السابقة والناشطة النسوية الجريئة إيمي شومر، قد أُستدرجت إلى عاصفة التعليقات والمناقشات التي تلت ذلك الحدث. ونددت

شومر علناً بتعليقات ميتزجر، مُغردةً: «أشعر بالأسى الشديد وخيبة الأمل في كيرت ميتزجر. إنه - فضلا عن كونه- صديقي، كاتب عظيم ولا يسعني أن أبلُغ مبلغاً من المعارضة حيال تصرفاته الأخيرة، أكثر مما فعلت».

إن إلقاء اللوم على الضحية يتجسد في أشكال عديدة، وغالبًا ما يكون بالغ التقانة، وممثلًا بشكل لا واعٍ، بطريقة أوضح مما عليه الحال في إساءة ميتزجر تلك. إنه من الممكن - وبلا شك - أن تنطبق أيضًا على حالات الاغتصاب والاعتداء الجنسي، وذلك بالإضافة إلى كثير من الجرائم المعتادة والأقل شأنًا، فعلى سبيل المثال: الشخص الذي يتعرض للنشل، سنجده يتعرض للتوبيخ؛ إذ قرر لسوء حظه أن يحمل محفظته في جيبه الخلفي! وهنا نقول أنه في أي وقت ينبري فيه شخص ما للتساؤل عما كان يمكن للضحية أن تفعله بشكل مختلف لتجنب وقوع جريمةٍ ما، فإنه مشارك، إلى حد ما، في(ثقافة) إلقاء اللوم على الضحية.

على الرغم من أن ثقافة إلقاء اللوم على الضحية ليست بذات صدًى على الصعيد العالمي (إذ إن تجارب بعض الأفراد وخلفياتهم وثقافاتهم تجعلهم أقل عرضة ليقعوا في دائرة إلقاء اللوم على الضحايا)، إلا أنها إلى حد ما رد فعل نفسي/سيكولوجي طبيعي جراء الجريمة. ليس كل من ينخرط في إلقاء اللوم على الضحية يتهم بِجَلَاء شخصًا محدداً/ شخصاً بالتحديد بالفشل في منع ما حدث له. في الواقع، ففي أنماطه الأكثر بساطةً، لا يدرك الناس دائمًا أنهم يفعلون ذلك. فشيءٌ ببساطة السماع عن جريمة ما أو التفكير في أنك سوف تتوخى الحذر أكثر ما لو كنت في موضع الضحية، هو في الواقع شكل مُبسط من أشكال إلقاء اللوم على الضحية.

تقول شيري هامبي Sherry Hamby، أستاذة علم النفس في University

of the South ومحررة مجلة سيكولوجية العنف التابعة للجمعية البرلمانية الأمريكية والمؤسسة لها أيضًا «أعتقد أن العامل الأكبر الذي يعزز إلقاء اللوم على الضحية هو ما يسمى «بفرضية العالم العادل». كما تضيف: «إنها الفكرة القائلة بأن الناس يستحقون ما يحدث لهم، أرى هنالك حاجة قوية حقًا للايمان بأننا جميعًا نستحق نتائجنا والعواقب اللاحقة بنا «. وتوضح هامبي أن هذه الرغبة في رؤية العالم على أنه عادل ومنصف قد تكون أقوى بين الأميركيين، الذين نشؤوا ضمن ثقافة تروج للحلم الأميركي وفكرة أننا جميعا نتحكم في مصائرنا.

وتقول: «في الثقافات الأخرى، حيث أحياناً بسبب واقع الحرب أو الفقر أو ربما حتى بسبب المخيال القوي للحتمية الثقافية (التثاقف الإجباري) ، فمن الأفضل إدراك أنه في بعض الأحيان قد تحدث الأشياء السيئة للأخيار». «ولكن كقاعدة عامة، يصعب على الأمريكيين التعامل مع فكرة حدوث الأشياء السيئة للأشخاص الطيبين».

إن تحميل الضحايا المسؤولية عن مصيبتهم هو بقدرٍ ما وسيلة لتجنب الاعتراف بأن لا شيء - ولو كان يجول بخاطرك حتى - يمكن أن يحدث لك، حتى لو فعلت كل شيء «بشكل صحيح».

٢- «يتبين لي من واقع خبراتي، أن الناس يلقون باللوم على الضحايا، فقط لئلا ينهدم إحساسهم بالأمان»:

في حين أن لوم الضحايا غالبًا ما يعيد صورًا ذهنية من الذاكرة الجمعية لبعض الجرائم مثل: الاعتداء الجنسي والعنف المنزلي، إلا أن ذلك يمكن أن نراه في المجالات جميعها. فكما توضح باربرا جيلين، أستاذة الخدمة الاجتماعية في جامعة وايدنر: « إنه مهما كانت الجريمة؛ قتلًا أو سطوًا أو اختطافًا، فإن كثيرين من الناس يميلون إلى تبني أفكار وسلوكيات إلقاء اللوم على الضحية، كمجرد آلية دفاع defense mechanism في مواجهة الأخبار السيئة»، وتشير جيلين إلى أنه في حين يميل الناس إلى قبول الكوارث الطبيعية باعتبارها حتمية ولامفر منها، فإن الكثيرين قِبالهم يشعرون أن لديهم قدرًا من السيطرة قبل أن يتخيلوا أنفسهم ضحايا لتلك الجرائم، وأنهم كذلك قادرون على اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحماية أنفسهم. لذلك، يجد بعض الأشخاص صعوبة أكبر في تقبل حقيقة أن ضحايا هذه الجرائم لم يساهموا (بل ويتحملون بعض المسؤولية) في وقوعهم ضحايا.

توضح جيلين: « يَتبين لي من واقع خبراتي، أن الناس يلقون باللوم على الضحايا، فقط لئلا ينهدم إحساسهم بالأمان». « لقد وجدت بناء على خبراتي من خلال العمل مع الكثير من الضحايا، ومن لهم علاقةٌ بهم من الناس، أن البعض يلومونهم، حتى يُشعروا أنفسهم بالأمان لا أكثر». وتضيف: «أعتقد أن ذلك يعطيهم إيحاء بأن الأشياء السيئة لن تحدث لهم أبدًا. وبالتالي، يمكنهم الاستمرار في الشعور بالأمان. إنه من المؤكد وجود سبب ما لتعرض طفل الجيران للاعتداء، إلا أن هذا لن يحدث أبدًا لطفلهم؛ لأن ذاك الوالد الآخر لابد، وحتمًا قد

أخطأ في عمل شيء ما (وبالتالي وقع ضحية للاعتداء)!

وتضيف هامبي أنه حتى أكثر الناس إحسانًا للنية يساهمون أحيانًا في لوم الضحية، مثل المعالجين الذين يعملون في برامج الوقاية حيث تُعطى النساء تعليمات ليكُنّ أكثر حذرًا، ومن ثم يتجنبن الوقوع ضحية لأي جريمة كانت.

وتقول «ستتحقق أقصى مراحل الأمان حينما لا تغادر منزلك أبداً، لأنك حينها ستكون أقل عرضة للوقوع كضحية»، و «لا أعتقد أن الناس قاموا بعمل جيد في سبيل إجالة التفكير في الأمر، من أجل وضع حدود توضح المسؤوليات التي يتحملها كل شخص كي يتجنب الوقوع ضحية لجريمة ما».

قامت كلٌّ من لورا نيمي، باحثة ما بعد الدكتوراه في علم النفس بجامعة هارفارد، وليان يونج، أستاذة علم النفس في بوسطن كوليج، بإجراء بحث يؤمّلان أن يعالج ظاهرة إلقاء اللوم على الضحية بشكل مباشر. ونشروا بالفعل هذا الصيف النتائج التي توصلوا إليها في النشرة الخاصة بالشخصية وعلم النفس الاجتماعي.

ومن الجدير بالذكر أن بحثهم، والذي احتوى على مشاركات ٩٩٤ فردًا وأربع دراسات منفصلة، قد أدى إلى العديد من النتائج المهمة. أولاً، لاحظوا أن القيم الأخلاقية تلعب دوراً كبيراً في تحديد مدى احتمالية إقبال شخص ما على أن يتخذ مسلك إلقاء اللوم على الضحية، وذلك مثل تصنيف الضحية على أنها «ملوثة» «contaminated» بدلاً من «مصابة» «Injured»، وبالتالي توسيع رقعة وصم ذلك الشخص - فقط - لكونه وقع ضحية لإحدى الجرائم .حددت كل من نيمي ويونغ مجموعتين أساسيتين من القيم الأخلاقية: القيم الملزِمة

والقيم الفردية. وفي حين أن كل شخص يتمتع بمزيج من كليهما، فإن الأشخاص الذين يظهرون قيمًا ملزمة أقوى، سيغدون أميل إلى تفضيل حماية المجموعة أو مصالح الفريق ككل، في حين أن الأشخاص الذين يظهرون قيمًا فردية أقوى يركزون أكثر على العدالة ومنع الأذى للفرد.

توضح نيمي أنه بزيادة التصديق(تصديق الناس) بالقيم الملزمة يزداد توقعنا على نحو أكثر ثقة بسلوكيات الوصم حيال الضحايا- وذلك في سياق الجرائم الجنسية والغير جنسية - كما توضح أيضاً أن الناس الذين فضلوا القيم المُلزمة كانوا أكثر عرضةً لرؤية الضحايا على أنهم يستحقون اللوم على ما أصابهم، بينما أولئك الذين فضلوا القيم الفردية كانوا أقرب للتعاطف مع الضحايا.

في دراسة أخرى، فإن نيمي ويونغ قد قدّمتا للمشاركين مقالات قصيرة تصف جرائم افتراضية، مثل: « اقترب دان من ليزا في إحدى الحفلات. أعطى دان لليزا مشروبًا مضافًا إليه الروهيبنول Rohypnol. في وقت لاحق من تلك الليلة، قام دان بالاعتداء على ليزا جنسيًا». ومن ثم سُئل المشاركون عما كان يمكن أن يتغير في الأحداث المروية لتحقيق نتيجة مختلفة.

ولا عجب أن أكثرية المشاركين الذين أظهروا /أبرزوا قيماً مُلزمة كانوا أكثر استعداداً لإسناد مسؤولية الجريمة التي وقع فيها الضحايا إليهم أو اقتراح حلول/أفعال كان من الممكن اتخاذها أثناء وقوع الجريمة لتغيير النتيجة.بينما أكثرية الأشخاص الذين أظهروا / أبرزوا قيماً فردية أقوى اتجهوا لفعل، العكس.ولكن حين قام الباحثون بالتلاعب اللغوي بالمقالات الصغيرة، وجدوا شيئًا مثيرًا للاهتمام.

تَلَاعَبَ كلٌّ من «نيمي ويونغ» ببنية الجملة في التدوينات العامة، مُغيرين موضع الفاعل في أغلب الجمل، ففي بعض الجمل كان الضحية وفي البعض الآخر كان الجاني. ومن ثَمّ، ففي بعض السرديات، تكون الضحية في موضع الفاعل أو نائب الفاعل، (على سبيل المثال، «تم التهجم على ليزا من قِبل دان»)، وتم إعطاء سرديات أخرى فتم وضع مرتكب الجريمة في موضع الفاعل (على سبيل المثال) «تهجم دان على ليزا».

٣- لو افترضنا أن التغطية الإعلامية ركزت على فداحة التجربة التي عانتها الضحية وقصتها - ولو على سبيل التعاطف - ، فإن أبحاث نيمي ويونغ تدلل على أن ذلك أيضا قد يزيد من احتمالية الإلقاء باللوم على الضحية:

توضح نيمي أنه عندما كان مرتكب الجريمة في موضع الجاني، انخفضت «نسبة تحميل المشاركين المسؤولية للضحايا، ولومهم إياهم بشكل ملحوظ». و عندما قمنا بسؤالهم صراحةً، عن إمكانية كون النتيجة مختلفة إلى هذا الحد، بل وأعطيناهم صندوقًا نصيًا فارغًا مع الحرية الكاملة لملئه، لوُحظ أن تعليقاتهم الفعلية تجاه تصرفات الضحية كانت أشياء مثل: «أوه، لقد كان بإمكانها أن تطلب سيارة أجرة» وهنا سنجد أنهم واجهوا صعوبة أكبر في الإتيان باحتمالاتٍ عما كان من الممكن للضحايا أن يقوموا به، بل وكانوا أقل تركيزا على سلوك الضحية عامةً. وهو ما يشير إلى أن الصيغة التي نعرض بها قضايا كتلك، قد تغير الطريق التي يفكر بها الناس حول الضحايا بالكلية.

في حين تشير جيلين إلى واقع أن الناس أكثر عرضة للتعاطف مع الضحايا الذين يعرفونهم جيدًا أو من لهم صلةٌ مباشرة بهم، فإن قراءة/مشاهدة الجرائم التي يتم الإبلاغ عنها في وسائل الإعلام يمكن أن يزيد أحيانًا من الميل إلى إلقاء اللوم على الضحية؛ فالضحايا الذين يشاهد الناس قصصهم في وسائل الإعلام غالباً ما يكونون غرباء عنهم، ويمكن لهذه القصص أن تثير هذا التنافر المعرفي بين الاعتقاد الراسخ في (وجود) عالم عادل، والأدلة الواضحة على أن الحياة ليست عادلة دائما وأننا لسنا في عالم الفضيلة. علاوة على ذلك، إذا ما ركزت التغطية الإعلامية على فداحة التجربة التي عانتها الضحية، وقصتها - ولو على سبيل التعاطف - ، فإن أبحاث نيمي ويونغ تشير إلى أن ذلك قد يزيد

من احتمالية الإلقاء باللوم على الضحية ومع ذلك، فإن القصص التي تركز على الجاني قد تكون أقل عرضة لإثارة رد الفعل هذا.

تقول نيمي، «إنها نتيجة مثيرة للاهتمام لأنها توضح رغبتنا في التعاطف والتركيز على معاناة الضحايا ، ولكن ربما قد يقودنا ذلك في الواقع إلى المبالغة في التركيز على أفعال الضحايا (وما كان) يُمكن أن يفعلوه بشكل مختلف، لدرجة سوف تقودنا إلى إهمال مصلحة المجني عليهم / الضحايا».

يمكن أن نرى في جوهر هذا الاستنتاج أن إلقاء اللوم على الضحية في الواقع، إنما ينبع من صراع داخلي يدور بين الفشل في التعاطف مع الضحايا والدافع البشري للحفاظ على الذات/ للنجاة والذي يتصور في رداء الخوف. وقد يكون رد فعل الخوف هذا، على وجه الخصوص، أمرًا صعبًا لبعض الناس في السيطرة عليه/ التحكم فيه. إن إعادة ترويض هذه الغريزة أمر ممكن، ولكنه ليس بالأمر السهل. تؤكد كلاً من هامبي وجيلين على أهمية التدريب على التعاطف والانفتاح على رؤية (أو على الأقل محاولة رؤية) العالم من وجهات نظر مختلفة بعيداً عن الفردية، مما يساعد الناس على تجنب الوقوع في فخ التكهنات حول ما كان يمكن للضحية أن تفعله بشكل مختلف لتجنب وقوع الجريمة.

تخبرنا هامبي: دونما سببٍ حقيقي، فإنه سيمكنك الرجوع بعد فوات الأوان لتقول: «حسنًا، كما تعلم، كان من الواضح أن هذا الشخص هو من كان ينبغي عليك اجتنابه»، إلا أن هذا ليس كالقدرة على القول بأن أي إنسان عاقلٍ، كان عليه أن يتمكن من التكهن بـ «الحدث في ذلك الوقت».

وهنا تشير نيمي إلى أن الوصول لجذور المشكلة قد يتضمن إعادةً لصياغة

الطريقة التي نفكر بها حول الجناة وكذلك الضحايا، سيما حالات الاغتصاب.

وتوضح قائلة: « إن الشيء الوحيد الذي قد يكون إشكالياً هو المبالغة في وصف الاغتصاب، وكيف تم تأطيره بحيث لا يمكن لأحدنا أن يتصور شخصًا ما مغتصبًا». «عندما يحدث ذلك، يكون الأمر مُرعباً لدرجةٍ لا يستطيع عندها الناس أن يتصوروا أحد أشقائهم، أو شخصًا من دائرة معرفتهم، بإمكانه أن يوصف كمُغتصب».

توضح نيمي أنه قد يكون من الصعب، خاصةً بالنسبة لأحباء الجُناة أو أقربائهم،أن شخصاً يعرفونه جيداً، أو يرونه كشخص جيد يُمكن أن يرتكب جريمة بهذه الوحشية. في بعض الحالات، فإنه قد يؤدي إلى الإفراط في التعاطف مع المجرمين «perpetrators» و التركيز على سماتهم أو إنجازاتهم، كما هو الحال مع تغطية قضية الاغتصاب بجامعة ستانفورد «stanford rape case» التي وُصِف فيها بروك تورنر «Brock Turner» أحيانًا بأنه نجم في السباحة بدلاً من كونه مغتصبًا متهمًا. وهذا يعتبر نوع آخر من آليات الدفاع «defense mechanism»،الذي يقود المقربين من الجناة «perpetrators» إما إلى إنكار جريمتهم أو التقليل من شأنها لتجنب التعامل مع العملية المعرفية «cognitive process» الصعبة، والمتمثلة في قبول إمكانية ارتكابهم لمثل هذا العمل الشنيع!

٤-محاكمة كاميرون هيرين.. لماذا نتعاطف مع الشخص الوسيم حتى لو كان مجرما:

في كتاب بعنوان «خطأ ثابت في التقييمات النفسية» صدر عام ١٩٢٠، طُلب من عدد من الضباط في الجيش تصنيف جنودهم إلى مجموعات بناء على صفاتهم البدنية (مثل اللياقة والقدرة على التحمُّل والأناقة) ومهارات القيادة والصفات الشخصية (مثل الولاء ونكران الذات والتعاون مع الآخرين وكذلك عن الذكاء).

جاءت النتائج لتُشير إلى أن هناك ارتباطات ملحوظة بين معايير الصفات البدنية كاللياقة أو الأناقة مع المعايير الأخرى مثل القيادة والسمات الشخصية والذكاء، تبيَّن لثورندايك بعد ذلك أن التقييمات بُنيت بطريقة واحدة، وهي أن يبدأ المُقيِّم بإعطاء نظرة عامة للجندي، ثم بعد ذلك يقفز إلى استنتاجات بشأن الصفات الأخرى لهذا الجندي، نحن إذن أمام تحيُّز إدراكي واضح، لأن ما حدث هنا هو إطلاق غير مُبرَّر للحكم العام بناء على سمة معينة.

كاميرون هيرين، شاب بعمر الثامنة عشر كان مسؤولًا عن قتل أم وطفلتها في شوارع بايشور بوليفارد عام ٢٠١٨، حُكم على هيرين بقضاء ٢٤ عاما في السجن، وهي عقوبة مقبولة في حادث كهذا، لكن القضية لم تتوقَّف هنا، بل انتقلت إلى عوالم وسائل التواصل الاجتماعي عالميًا، وأثير جدل متصاعد لم يتوقَّع أحد أبدا أن يظهر، حيث دافع البعض عن هيرين بحماسة وطلب له العفو، والسبب هنا لم يُبنَ على حجة قانونية أو منطقية، لكن فقط لأن هيرين وسيم الشكل ويبدو أنه طيّب القلب!

وقد قال المدعي العام اندرو وارن بأن هذه الجريمة قد اودت بحياتين

جميلتين وهي حياة الام وابنتها وسببت آلام كبيرة لاربع عائلات، ولا يمكن لاي شيء ان يقوم بإصلاح هذا الضرر أو إعادة الارواح التي فقدت في هذا السباق المتهور، لكن من خلال هذه النتيجة والعقاب لهيرين يمكن توفير بعض الراحة لعائلة جيسيكا وليليا.

من ناحية سيكولوجية، فإن الهالة تعني أن سمة إيجابية ظاهرة في شخص ما تُولّد اتجاها إيجابيا عاما عن كل صفاته الأخرى، والعكس لو كانت هناك سمة سلبية ظاهرة، حينما يرى الضابط أحد الجنود وسيم الشكل أو يتمتع باللياقة، فإنه مباشرة يقفز إلى تقييم إيجابي في نطاق آخر لا علاقة له بالأناقة أو اللياقة، وهو حُسن الأخلاق مثلا أو الذكاء، ولكنه حينما يرى شخصا غير وسيم، فإنه ينطلق للعكس، لكن يبدو أن الأمر يتجاوز الذكاء وحُسن الخلق بمسافة شاسعة!

بدأ كاميرون هيرين العقوبة في السجن لمدة ٢٤ سنة من اجل حادث سيارة في ابريل، وبحلول اوائل شهر يوليو، اطلقت جيوش من حسابات التواصل الاجتماعي حملات لدعمه، انهالت التعليقات التي تقوم بالإشارة إلى (تاغ) "كاميرون هيرين" او "العدالة لكاميرون" على صفحات التويتر والانستغرام وفيسبوك لمحاكمة الدائرة الثالثة عشر، ومحامي ولاية هيلزبورو ، أندرو وارين ، وإدارة الإصلاح في فلوريدا ، وتامبا باي تايمز والعديد من محطات الأخبار التلفزيونية المحلية، كما قاموا بالإشارة إلى كل من الحاكم والرئيس وأوبرا وينفري.

Telegram:@mbooks90

تلقى هيرين كل هذا الدعم من مزيج من الاشخاص كانوا يعتقدون بأن عقوبة هيرين كانت قاسية للغاية، وان هيرين لا يشبه منظر المجرمين وانه صغيرًا وجميلًا للغاية ولا يمكنه تلقي عقوبة قاسية بهذا القدر، كما كان هناك

العديد من الحسابات الوهمية من الشرق الاوسط، او تم التحويل من النشر عن موسيقى البوب الكورية بي تي اس BTS إلى النشر حصرًا عن هيرين وذلك من اجل إنشاء قاعدة بالمتابعين في البداية، بعض المتابعين لم يكتفي بذلك إنما قام بإنشاء حسابات وهمية استعملت صور شخصية تم تعديلها بتقنية الذكاء الاصطناعي، وكما كان هناك مواقع غريبة قامت بدعم قضية هيرين.

حسنا، يبدو إذن أننا لا نتحدّث عن كاميرون هيرين فقط، كذلك يبدو أننا نتهم مراهقي إنستغرام وفيسبوك وتويتر بشيء نظن أننا لا نقع نحن في أسره، لكننا قد نكون غارقين فيه حتّى الثمالة، والفكرة أن نحاول الانتباه لذواتنا دائما، ألا نستثني أنفسنا من الأخطاء الإدراكية البسيطة مثل تأثير الهالة، لأن ذلك الاستثناء هو أولى علامات الوقوع بها.

خاتمة الفصل

تعتبر هذه الحالة واحدة من الظواهر النفسية غير العادية التي يصعب تفسيرها ومتابعة أنماط تغيرها اللحظي وعلى المستوى البعيد، فنجد متلازمة ستوكهولم نظرية نفسية تبين مدى صعوبة فهم وإدراك خبايا النفس البشرية فيما يتعلق بمشاعر التعاطف مع القتلة والمجرمين، كما تبين أيضا مدى ذلك التدرج النفسي من التعاطف والتآزر من اللون الأبيض إلى اللون الأسود. وحيث أن مرتكبي الجرائم تعتبرهم المجتمعات مذنبين وجب عقابهم وردعهم؛ فإننا سنجد على الجانب الآخر فئات تزداد كل فترة يتجلى دورها في التعاطف مع الجناة وتبرير جرمهم تحت طائلة أسباب متعددة، تجعل من علم اجتماع يفرز نظريات تنصب على دراسة التأثير الذي يتركه التعاطف مع أنماط الجريمة في الأوساط المجتمعية. حالة التعاطف اختلف في تفسيرها الكثير من الخبراء؛ فمنهم من اعتبرها ناتجة عن التعاطف الأعمى اللحظي الناتج عن الخوف من إزهاق روح المجرم الذي قد يناسب معايير جمالية معينة أو يظهر نوعا من الحسرة والندم لما ارتكبه، ومنهم من اعتبر حالة التعاطف المتطرف هاته ناتجة عن الإحساس بالعدالة التي ينفذها المجرمون في حق أشخاص فاسدين، أو التمرد ضد التركيبة الشعورية التي ذاقتها هؤلاء النسوة كالدونية أو الاحتقار وجلد الذات أو الإحساس بالخوف وغيره.. مما يجعل هذه الحالة الشاذة جديرة بالدراسة والتعمق في تفسير مكنونات الشعور البشري وسلوكياته.

Telegram:@mbooks90